أدركه بالتقوى

شرح حديث اتق الله

تأليف
د. محمد يسري إبراهيم

دار اليسر

المشكاة

شرح حديث اتّق الله

المشكاة

شرح حديث اتّق الله

تأليف

د. محمد يسري إبراهيم

الأمين العام للهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح

دار البشر

عضو اتحاد الناشرين المصريين

رقم الإيداع
٢٠١٢/٤٤٤٣

الترقيم الدولي
9-789-77-51-02-140

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢ م

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

إبراهيم، محمد يسري
المشكاة : شرح حديث اتق الله
تأليف محمد يسري إبراهيم
القاهرة: دار اليسر ٢٠١٢م.
١٥٢ص، ١٤سم × ٢٠سم.
تدمك ٩٧٨٩٧٧٥١٠٢١٤٠
١- الحديث - شرح
أ- العنوان
٢٣٧.٣

دار اليسر للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصور الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدم أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

٢٠ ش عبد العزيز عيسى، المنطقة التاسعة الحي الثامن ، مدينة نصر، القاهرة.
تليفون : ٠٠٢ ٠٢٢٤٧٠٩٢٦٩
فاكس: ٠٠٢ ٠٢٢٤٧١٤٨٠١
محمول: ٠٠٢ ٠١٠٦٢٢٧٦٢٠٨
خدمة العملاء: ٠٠٢ ٠١١١٨٠٠٦٠٦٠
Email : alyousr@gmail.com

المشكاة
شرح حديث اتق الله

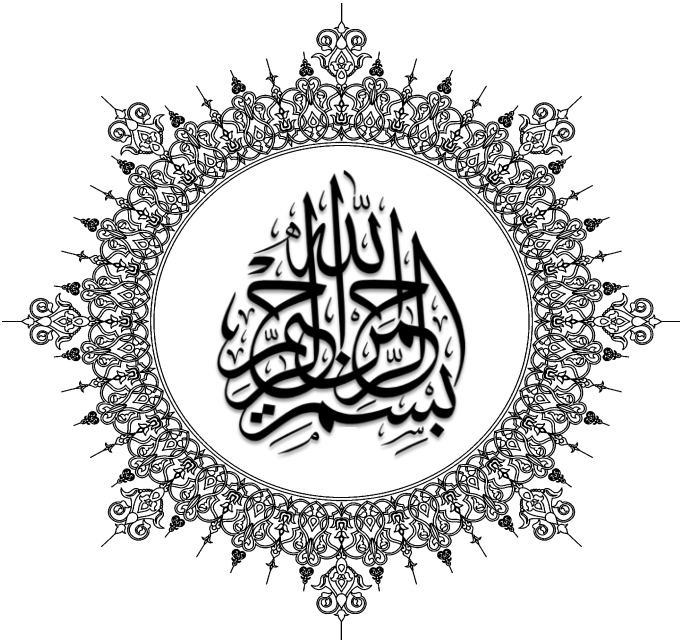
بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله المعبود بالإحسان، المقصود بالقلب والجَنان، وصلى الله وسلم وبارك على المحمود من بني عدنان، وعلى آله وأصحابه معادن التقوى والإيمان.

أما بعد:

فإن الإسلام هو دين الله الحق، وإن شريعته هي الشريعة الخاتمة، والتي قامت بحاجة بني الإنسان على أكمل الوجوه، وهدت الخلق لأقوم سبيل ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٩]، والإنسان في هذه الحياة تتعدد علاقاته، وتتنوع معاملاته، ولهذا عنيت السنة المطهرة -كما عني القرآن- بتوجيه الإنسان للتي هي أقوم في معاملته لربه تعالى، ولنفسه، ومعاملته للخلق والناس أجمعين.

وبين أيدينا هذا الحديث الجامع الماتع الذي جعل التقوى عنوان علاقة العبد بربه، وحسن الخلق عنوان تعامل العبد

مع غيره، ومكاثرة السيئات بالحسنات الماحية، والخصال المكفرة للذنوب عنوان تعامل العبد مع نفسه.

وهذا الكتيب في أصله مستل من كتابي (الجامع في شرح الأربعين النووية)، ولأهميته رأى أحبابنا في دار اليسر إفراده بالنشر تسهيلا لتداوله، وتكثيرا للخير في مطالعته والانتفاع به، وفق الله الجميع لما يحب ويرضى.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

د. محمد سيري إبراهيم

القاهرة في: ١٥-٢-١٤٣٣هـ

٩-١-٢٠١٢م

الْحَدِيث

عَنْ أَبِي ذَرٍّ جُنْدَبِ بْنِ جُنَادَةَ وأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ:

«اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ».

رواه الترمذيُّ، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ» وفي بعضِ النُّسَخِ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».

طرق الحديث وألفاظه

هذا الحديث رواه وكيع بن الجراح، عن سفيان، عن حبيب ابن أبي ثابت، عن ميمون بن أبي شَبيب، عن معاذ، أنَّ رسول الله ﷺ قال له، فذكره. وهكذا أخرجه أحمد: ثنا وكيع بإسناده[(١)]، وهو عند ابن أبي شيبة[(٢)] والترمذي عن وكيع به[(٣)]، ونقل الترمذي عن شيخه محمود بن غيلان قال: «والصحيح حديثُ أبي ذَرٍّ»[(٤)].

وحديثُ أبي ذَرٍّ المشار إليه أخرجه أحمد: ثنا وكيع بإسناده المذكور، فقال فيه: «عن أبي ذَرٍّ أن النبي ﷺ قال له» يعني: بدلًا من «معاذ»[(٥)].

وقال الإمام أحمد عقبه: «وقال وكيع: وقال سفيان مَرَّةً: عن معاذ، فوجدتُ في كتابي: عن أبي ذَرٍّ، وهو السماع الأول»[(٦)]، وقال أحمد في الموضع الثاني من «المسند»: «وكان ثنا به وكيع عن

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٩٨٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٥٨٣٣).

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، ولم يسق لفظه، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) الترمذي (٤٢٤/٣).

(٥) أخرجه أحمد (٢١٣٥٤، ٢١٤٠٣).

(٦) مسند أحمد (٢٨٤/٣٥).

ميمون ابن أبي شبيب عن معاذ، ثم رجع»[١].

وقد أخرجه ابن مهدي[٢] وقبيصة ومحمد بن كثير[٣] ويحيى ابن سعيد[٤] وغيرهم عن سفيان بإسناده، عن أبي ذَرٍّ به.

وفي رواية للبيهقي في «الشعب»: «وإذا عملت سيئةً فأضف إليها حسنة تمحها»[٥]، وقد ذكر البيهقي روايةَ معاذ، ثم ذكر رواية أبي ذَرٍّ هذه، وقال عقبه: «كذا قالوا: عن أبي ذَرٍّ، وكلاهما مرسل، وسفيان أحفظ، غير أنَّ له عن معاذ شواهد»اهـ.[٦]

وذكره أبو نعيم في «الحلية» من طريق أبي نعيم عن سفيان به، ثم قال: «غريب من حديث ميمون عن أبي ذَرٍّ»[٧].

وقد ورد الحديث من غير وجهٍ على اختلاف فيه، فرواه

---

(١) مسند أحمد (٣١٩/٣٥).

(٢) رواية ابن مهدي عن سفيان عند الترمذي (١٩٨٧)، والبزار في مسنده (٤٠٢٢)، والقضاعي في مسند الشهاب (٦١١).

(٣) رواية قبيصة ومحمد بن كثير عن سفيان عند الحاكم في المستدرك (١٢١/١) وعند البيهقي في الشعب (٧٦٦٣)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٤) رواية يحيى بن سعيد عند أحمد (٢١٥٣٦).

(٥) رواية البيهقي في الشعب (٧٦٦٣).

(٦) شعب الإيمان، للبيهقي (٣٨١/١٠).

(٧) رواية أبي نعيم في حلية الأولياء (٣٧٨/٤).

الليث بن أبي سليم، عن حبيب، عن ميمون، عن معاذ[١]، وفي رواية لجرير[٢] عن ليث عن حبيب عن ميمون أنَّ معاذ بن جبل قال للنبي ﷺ: أوصني يا رسول الله، ورواه الأعمش[٣] عن حبيب حبيب عن ميمون عن معاذ، ورواه أبو مريم[٤] عبد الغفار بن القاسم عن حبيب، عن ميمون، عن معاذ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله أوصني، فقال: «**عليك بحسن الخلق، فإن أحسن الناس خلقًا أحسنهم دينًا**».

وأخرجه أبو سنان عن حبيب عن ميمون قال: قال معاذ للنبي ﷺ هكذا مرسلًا[٥].

والحديث معلٌ من وجوه، منها:

الأول: أن ميمون بن أبي شبيب لم يدرك معاذًا، ولا أبا ذَرٍّ،

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠٥٩)، والشاشي في «مسنده» (١٣٥٥)، والطبراني في «الكبير» (١٤٥/٢٠) رقم٢٩٧، ٢٩٨، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣٧٦/٤)، ولم يسق لفظه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٤٥/٢٠) رقم ٢٩٧، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٦٦١).

(٣) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٥٣٠)، و «الأوسط» (٣٧٧٩) وابن عبد البر في «التمهيد» (٨/١٥).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٤٤/٢٠) رقم ٢٩٥و٢٩٦، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣٧٦/٤)، واللفظ للطبراني.

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٦٦٢).

فهو مرسلٌ منقطعٌ من هذه الجهة.

الثاني: أن الرواة قد اختلفوا فيه، فَرَوَوْه هكذا موصولًا مع الاختلاف في أبي ذَرٍّ أو معاذ، ورَوَوْه عن ميمون عن النبي ﷺ مرسلًا [١] لم يذكروا فيه أحدًا أعلى منه، وقيل: عن الحكم مرسلًا أيضًا [٢]، ورجَّح الدارقطني المرسل على الموصول[٣]. ورُوِي الحديث من غير هذا الوجه عن معاذ وأبي ذَرٍّ، فرواه مالك: حدثني يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل قال، فذكره بلفظ: «**أَحْسِنْ خُلُقَكَ للناسِ**»[٤]، وفيه انقطاع بين يحيى ومعاذ.

وأخرجه شعبة[٥] عن الحكم مرسلًا قال: أوصيك بما أوصى به النبي ﷺ معاذًا.

وقال وكيع مرة: عن إسماعيل عن حكيم بن جابر، قال: قال رجلٌ لرجلٍ: أوصني، فقال: «أَتْبِع...» فذكر الحديث[٦].

---

(١) رواية ميمون وهو ابن أبي شبيب عند البيهقي في «الشعب» (٧٦٦٢).
(٢) رواية الحكم وهو ابن عتيبة عند علي بن الجعد في «مسنده» (٣١٢).
(٣) «العلل»، للدارقطني (٧٢/٦ رقم ٩٨٧).
(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٥٨٥/٣) والبيهقي في «الشعب» (٧٦٦٦)، وذكره مالك في «الموطأ» (١٦٠٢)، أن معاذ بن جبل فذكره.
(٥) «مسند» ابن الجعد (٦١/١، رقم/ ٣١٢).
(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٤٠٢).

وأخرجه الأعمش[١]، عن شِمْر بن عطية، عن أشياخه، عن أبي ذَرٍّ قال: قلت: يا رسول الله أوصني، قال: «**إذا عملت سيئة فأَتْبِعْها حسنةً تَمْحُهَا**» قال: قلت يا رسول الله: أَمِنَ الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: «**هي أفضلُ الحسناتِ**». وإسناده ضعيف، وفيه مبهمٌ لا يُعْرَف.

وأخرجه أبو السُّمَيْط سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن عبد الله ابن عمرو، أن معاذ بن جبل أراد سفرًا، فقال: يا رسول الله أوصني، فذكره بزيادات فيه، وقال فيه: «**إذا أسأتَ فأَحْسِنْ**» وقال: «**استقمْ ولْتُحْسِنْ خُلُقَكَ**»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٤٨٧)، والحديث حسن لغيره، فالشطر الأول سلف عند أحمد (٢١٣٥٤)، من طريق ميمون بن أبي شبيب عن أبي ذر، وأما الشطر الثاني فيشهد له حديث جابر بن عبد الله عند الترمذي، (٣٣٨٣) وابن ماجه، (٣٨٠٠) وابن حبان، (٨٤٦) بلفظ: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله» وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه الحاكم (١٢١/١)و (٢٤٤/٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح الإسناد من رواية البصريين، ولم يخرجاه، وابن حبان (٥٢٤) والبيهقي في «الشعب» (٣٨٢/١٠) رقم ٧٦٦٤، والطبراني في «الكبير» (٣٩/٢٠، رقم ٥٨)، و«الأوسط»، (٣١٨/٨، رقم ٨٧٤٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥٢/٨): رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه عبد الله بن صالح وقد وثق، وضعفه جماعة وأبو السميط سعيد بن أبي سويد، مولى المهري لم أعرفه. وقال الحافظ في «الأمالي المطلقة» (١٣٢/١)، هذا حديث حسن.

وصححه الحاكم وفيه نظر؛ وأبو السميط لم يرو عنه كبير أحد، وفيه جهالة.

وذكره ابن رجب من غير وجهٍ، وتكلَّمَ عليها جميعًا، ولا يصح من وجهٍ من الوجوه، وأقوى ما فيه الإسناد الأول على الاختلاف والإرسال الواقع فيه.

وقال ابن رجب: «قد رُوِيَتْ وصية النبي ﷺ لمعاذٍ من حديث ابن عمر وغيره بسياقٍ مطوَّلٍ من وجوهٍ فيها ضعف»[1] اهـ.

.

بَيْدَ أنَّ معنى الحديث مشهور في الكتاب والسنة، كما سيأتي، فهو صحيح المعنى، ضعيف المبنى والإسناد، وقد ذكر له ابن رجب عدةَ شواهد، وستأتي معنا في أثناء الشرح.

(١) «جامع العلوم والحكم» (٤١٠/١).

رواة الحديث

❁ الراوي الأول: أبو ذر رضي الله عنه:

اسمه:

جُنْدب بن جُنادة على المشهور، بضم الجيم فيهما، وتثليث دال جندب.

واسمه بالكامل جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد بن الوقيعة ابن حرام بن غفار.

كنيته وسبب تكنيته بها:

كنيته: أبو ذَرٍّ، بالذال المعجمة المفتوحة، وتشديد الراء، واشتهر بأبي ذَرٍّ الغفاري.

وقيل: كان له ولد اسمه ذَرٌّ فَكُنِّيَ به، ولما مات ولده مرَّ على قبره، وقال: يا ذَرُّ قد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك، ليت شعري ما قلتَ وما قيلَ لك!

وقيل في سبب تكنيته أنه وزن رغيفًا مخبوزًا ووضعه، فعلاه الذَّرُّ وستره -والذر: صغار النمل- ثم وزنه فلم يزد شيئًا، فقال: انظروا إلى هذا لم يظهر في ميزان الدنيا، وإن ميزان الآخرة

ليطيش بواحدة منها، فقيل له: أبو ذَرٍّ[١].

قال ابن عبد البر: «أبو ذَرٍّ الغفاري، ويقال: أبو الذر، والأول أكثر وأشهر»[٢]اهـ

إسلامه[٣]:

كان أبو ذَرٍّ يتعبد الله قبل مبعث النبي ﷺ، وأسلم بمكة قديمًا، وقال: كنت في الإسلام رابعًا، عن عبد الله ابن صامت قال: قال أبو ذَرٍّ: لقد صليت يا ابن أخي قبل أن ألقى رسول الله بثلاث سنين، قال: فقلت: لمن؟ قال: لله، قلت: فأين تتوجه؟ قال: حيث وجهني الله ﷻ.

- وعن قصة إسلامه قال أبو ذَرٍّ: انطلقت أنا وأخي حتى نزلنا بحضرة مكة، وانطلق أخي أنيس فأبطأ عليَّ، فقلت: ما حبسك؟ قال: لقيت رجلًا يزعم أن الله ﷻ أرسله على دينك، قال: فقلت: ما يقول الناس فيه؟ قال: يقولون: إنه شاعر، وساحر، وكاهن.

قال أنيس: قد سمعت قول الكهان، فما يقول بقولهم، وقد وضعت قوله على أقراء الشعراء فوالله ما يلتئم، ووالله إنه

---

(١) «شرح الجرداني» (ص١٢٥).

(٢) «الاستيعاب»، لابن عبد البر (١٦٥٢/٤ رقم٢٩٤٤).

(٣) انظر: «صفة الصفوة»، لابن الجوزي (٥٨٤/١-٥٩٠).

لصادق، وإنهم لكاذبون.

قال: فقلت له: هل أنت كافيَّ حتى أنطلق فأنظر؟ قال: نعم؛ فكن من أهل مكة على حذر؛ فإنهم قد شنفوا له -أي: أبغضوه- وتجهموا له، قال: فانطلقت حتى قدمت مكة، فاستضعفت رجلًا منهم، فقلت له: أين هذا الرجل الذي يدعونه الصابئ؟ قال: فأشار إليَّ قال: الصابيء! قال: فمالَ أهلُ الوادي عليَّ بكل مدَرَةٍ (القطعة من الطين اليابس) وعظمٍ حتى خررتُ مغشيًا عليَّ، فارتفعتُ حين ارتفعتُ كأني نُصُبٌ أحمرُ، فأتيتُ زمزم فشربت من مائها، وغسلت عني الدَّمَ، فدخلت بين الكعبة وأستارها، فلبثتُ به -يا ابن أخي- ثلاثين، من بين يوم وليلة، ما لي طعام إلا ماء زمزم، فَسَمِنْتُ حتى تكسَّرتْ عُكن بطني، وما وجدتُ في كبدي سَخْفَةَ جوعٍ (أي: رقته وهزاله).

قال: فبينما أهل مكة في ليلة قمراء، وما يطوف بالبيت غير امرأتين، فأتتا عليَّ وهما يدعوان إسافًا ونائلة[1] فقلت: أَنْكِحوا أحدَهما الآخرَ، فانطلقتا تولْولان وتقولان: لو كان ها هنا أحد من أنفارنا، قال: فاستقبلهما رسول الله ﷺ وأبو بكر وهما هابطان من الجبل فقالا: ما لكما؟ قالتا: الصابئ بين الكعبة وأستارها.

(١) وهما صنمان تزعم العرب أنهما كانا رجلًا وامرأة زنيا في الكعبة فمُسخا.

قالا: فما قال لكما؟ قالتا: قال لنا كلمة تملأ الفم.

قال: فجاء رسول الله ﷺ هو وصاحبه فاستلم الحجر وطاف بالبيت، ثم صلى ركعتين.

قال: فأتيتُهُ، فكنتُ أوَّلَ من حيَّاه بتحية الإسلام، فقال: وعليك السلام ورحمة الله، ممن أنت؟ قال: قلت: من غفار، قال: متى كنتَ ها هنا؟ قال: قلت: كنت ها هنا منذ ثلاثين من بين يوم وليلة، قال: فمَنْ كان يُطعمك؟ فقلت: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم، فقال أبو بكر: ائذن لنا يا رسول الله في طعامه الليلة، فأذن له، وانطلق النبي ﷺ وأبو بكر وهو معهما حتى فتح أبو بكر بابًا، فجعل يقبض لهما من زبيب الطائف، فكان ذلك أول طعام أكله بمكة.

ثم إن النبي ﷺ قال له: «**إني وُجِّهْتُ إلى أرض ذات نخل، فلا أحسبها إلا يثرب، فهل أنت مبلِّغ عني قومك لعل الله ﷻ ينفعهم بك ويأجرك فيهم**»، فانطلق أبو ذَرٍّ إلى أخيه أنيس فأسلم، ثم ذهب إلى أمه فكلماها فأسلمتْ، ثم انطلق إلى قومه يدعوهم فأسلم بعضهم وتريَّثَ بعضهم، حتى هاجر النبي ﷺ إلى المدينة فأسلم أهل غِفَار.

فقال ﷺ: «**غِفَارٌ غفر الله لها، وأسلمُ سالمها الله**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧٣) بسياقٍ أتمَّ من هذا.

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عباس أن أبا ذَرٍّ لما دخل على رسول الله ﷺ وأسلم قال له النبي ﷺ: «**ارجع إلى قومك حتى يأتيك أمري**»، فقال: والذي نفسي بيده لأصرخنَّ بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وثار القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكبّ عليه فقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غِفَار وأن طريق تجارتكم إلى الشام؟ يعني تمرّ عليهم، فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها وثاروا عليه وضربوه فأكب عليه العباس فأنقذه[١].

ثم رجع إلى بلاد قومه، فأقام بها حتى مضت بدر وأُحُد والخندق، ثم قدم المدينة.

قال خفاف بن إيماء: كان أبو ذر شجاعًا ينفرد وحده فيقطع الطريق ويغير على الصِّرم[٢] كأنه السبع، ثم إن الله تعالى قذف في قلبه الإسلام وسمع بالنبي ﷺ بمكة فأتاه.

مناقبه رضي الله عنه:

- **صِدْقه:**

قال ﷺ: «**ما أَقَلَّتِ الغبراء، ولا أَظَلَّتِ الخضراء من رجلٍ**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٦١)، ومسلم (٢٤٧٤) بسياقٍ مطوَّلٍ.

(٢) الصِّرم: الجماعة ينـزلون بإبلهم ناحية على ماء.

أصدقَ من أبي ذَرٍّ»[١].

• **عِلْمه:**

قال عنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «وعاء مُلِئَ علمًا، ثم أُوكِئَ عليه، فلم يخرج منه شيء حتى قُبض».

• **عبادته:**

عن محمد بن واسع أن رجلًا من أهل البصرة ركب إلى أم ذَرٍّ بعد موت أبي ذَرٍّ، فسألها عن عبادة أبي ذَرٍّ، قالت: كان نهاره أجمع في ناحية يتفكر (أي: يتفكر فيما هو صائر إليه).

• **زُهدُه:**

عن جعفر بن سليمان قال: دخل رجلٌ على أبي ذَرٍّ، فجعل يقلب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذر أين متاعكم؟ قال: لنا بيت نوجه إليه صالح متاعنا، قال: إنه لا بد لك من متاع ما دمتَ ها هنا، قال: إن صاحب المنـزل لا يدعنا فيه.

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي ذَرٍّ، قال: والله لو تعلمون ما أعلم ما انبسطتم إلى نسائكم، ولا تقاررتم على

---

(١) أخرجه أحمد (٦٥١٩)، والترمذي (٣٨٠١)، وابن ماجه (١٥٦)، والحاكم (٣٤٢/٣)، وسكت عنه الحاكم والذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٥٣٧).

فُرُشِكُمْ، والله لوددتُ أن الله ﷻ خلقني يوم خلقني شجرة تعضد، ويؤكل ثمرها.

وقام أبو ذَرٍّ رضي الله عنه عند الكعبة، فقال: يا أيها الناس أنا جندب الغفاري هلموا إلى الأخ الناصح الشفيق، فاكتنفه الناس، فقال: أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفرًا أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلِّغُه؟ قالوا: بلى، قال: فإن سفر طريق القيامة أبعدُ ما تريدون، فخذوا ما يصلحكم، قالوا: وما يصلحنا؟ قال: حجوا حجة لعظائم الأمور، وصوموا يومًا شديدًا حَرُّهُ لطول النشور، وصلوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور.

• **مروياته:**

رُوي له مائتا حديث وواحد وثمانون حديثًا، اتفق الشيخان على اثني عشر حديثًا منها، وانفرد البخاري بحديثين، ومسلم بسبعة عشر حديثًا.

وفاته:

نزل أبو ذَرٍّ «الرَّبَذة» (براء مشددة مفتوحة، بعدها باء مفتوحة) وهي بُلَيدة صغيرة قرب المدينة.

ولما حضرته الوفاة بكت زوجته، فقال: وما يبكيكِ؟ قالت: وما لي لا أبكي، وأنت تموت بفلاة من الأرض، ولا

يَدَانِ لي بنعشك، وليس معنا ثوب يسعك كفنًا، ولا لك! فقال: لا تبكي وأبشري. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يموت بين امرأيْن مسلميْن ولدان أو ثلاثة، فيصبران ويحتسبان فيريان النارَ أبدًا**» وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنفر أنا فيهم: «**ليموتن رجل منكم بفلاةٍ من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين**»، وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد مات في قرية وجماعة، وإني أنا الذي أموت بفلاة من الأرض، والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبتُ، فأبصِرِي الطريقَ.

قالت: فقلت: أنَّى وقد ذهب الحاجُّ، وانقطعتِ الطريق؟! فقال: انظري، فكنتُ أسنده إلى الكثيب، فأقوم عليه، ثم أرجع إليه فَأُمَرِّضُه، قالت: فبينما أنا كذلك إذا برجال على رواحلهم كأنهم الرخم[1] فألحتُ لهم (أي: أشرتُ لهم) فأسرعوا إليَّ ووضعوا السياط في نحورها يَسْتَبِقُونَ إليَّ، فقالوا: ما لكِ يا أمةَ اللهِ، فقلتُ: امرُؤٌ من المسلمين تُكفنونه، يموت، قالوا: ومن هو؟ قلت: أبو ذَرٍّ صاحبُ رسول الله ﷺ.

قالت: ففدوه بآبائهم وأمهاتهم، وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه، فسلموا عليه، فرحب بهم، وقال: أبشروا، وساقَ الحديثَ السابق.

---

(١) طائر من الجوارح الكبيرة الوحشية مفردها: رَخَمَةٌ.

ثم قال: وإنه لو كان عندي ثوب يسعني كفنًا، أو لامرأتي ثوب يسعني كفنًا لم أكفن إلا في ثوب هو لي أو لها، وإني أنشدكم الله لا يكفنني رجل منكم كان أميرًا أو عريفًا[١] أو بريدًا[٢] أو نقيبًا[٣]، قال: فليس في القوم أحد إلا وقد قارف من ذلك شيئًا إلا فتًى من الأنصار، فقال: أنا أكفنك في ردائي هذا، وفي ثوبين في عيبتي[٤] من غزل أمي، قال: أنت فكَفِّنِّي، فكفَّنه الأنصاري، ودفنه في النفر الذين معه[٥].

وقد ذكر ابن إسحاق في «المغازي والسير» أنه مات سنة ٣٢هـ وصلَّى عليه ابن مسعود رضي الله عنه.

---

(١) عريف القوم سيدهم، والعريف: القيم والسيد لمعرفته بسياسة القوم، والعريف: النقيب، وهو دون الرئيس، قال ابن الأثير: وهو القيم بأمور القبيلة أو الجماعة من الناس، يلي أمورهم، ويتعرف الأمير منه أحوالهم. لسان العرب (ص٢٨٩٩).

(٢) أي: رسولًا، والمراد هنا: الرسول المبعوث من قبل الحاكم أو الأمير لتبليغ أمرٍ ما. وانظر: «لسان العرب» (ص٢٥٠) ط: دار المعارف.

(٣) وهو كالعريف على القوم المقدم عليهم، الذي يتعرف أخبارهم ويُنقِّبُ عن أحوالهم، أي: يفتش، «لسان العرب» (ص٤٥١٥).

(٤) العيبة: ما تجعل فيه الثياب.

(٥) أخرجه أحمد (٢١٣٧٣، ٢١٤٦٧)، وابن سعد (٢٣٢/٤ ـ ٢٣٣)، وابن حبان (٦٦٧٠، ٦٦٧١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٦٩/١ ـ ١٧٠)، والحاكم (٣٤٥/٣) والبهقي في «دلائل النبوة» (٤٠١/٦، ٤٠٢) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (٢١٥/١)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٣٥٨/١) مطوَّلًا ومختصرًا. قال الهيثمي في «المجمع» (٣٣٢/٩): «رجاله رجال الصحيح».

وفي رواية أخرى: أنه أوصى لزوجته وغلامه أن يُغَسِّلاه ويكفناه ويجعلاه على قارعة الطريق، فأول ركب يمر بكما فقولا له: هذا أبو ذَرٍّ صاحبُ رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، فلما مات فَعَلَا ذلك، وأقبل عبد الله بن مسعود في رهطٍ من أهل الكوفة، فوجدوا الجنازة على ظهر الطريق قد كادت الإبل أن تطأها، فقام إليهم الغلام، وقال: هذا أبو ذَرٍّ صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، فاستهلَّ ابن مسعود يبكي، ويقول: صدق رسول الله ﷺ: «**تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتُبعث وحدك**»[(١)]، ثم نزل نزل هو وأصحابه فصلَّوا عليه وَوَارَوْه.

❁ **الراوي الثاني: معاذ بن جبل** رضي الله عنه:

اسمه:

معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عامر بن عائذ بن عديِّ ابن كعب بن عمرو الأنصاري.

كنيته: أبو عبد الرحمن.

إسلامه: أسلم وعمره ثماني عشرة سنة.

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى»، (٤/٢٣٤-٢٣٥).

- **أعماله ومناقبه:**

- شهد العقبة الثانية مع السبعين، وشهد بدرًا، والمشاهد كلها.
- وبعثه النبي ﷺ سفيرًا إلى اليمن بعد غزوة تبوك.
- حفظ القرآن كاملًا في حياة النبي ﷺ.

- **ثناء رسول الله ﷺ عليه:**

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَعْلَمُ أمتي بالحلال والحرام: معاذ بن جبل**»[(١)].

ولما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن خرج معه يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ (أي: من الوصية) قال: «**يا معاذ إنك عسى ألَّا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك تمر بمسجدي هذا وقبري**» فبكى معاذ جَشَعًا لفراق رسول الله ﷺ، ثم التفت، فأقبل بوجهه نحو المدينة، فقال: «**إن أولى الناس بي المتقون، مَن كانوا، وحيث كانوا**»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٩٠٤)، والترمذي (٣٧٩٠) (٣٧٩١)، وابن ماجه (١٥٥). وابن سعد في «الطبقات» (٥٨٦/٣) و(٣٨٨/٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢٢٨/١)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وسيأتي آخر الرسالة.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٢٠٥٢)، وابن حبان (٦٤٧) وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٥٣٧٥).

• **ثناء الصحابة عليه:**

قال ابن مسعود: إن معاذ بن جبل كان أمة قانتًا لله حنيفًا، فقيل:﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٠] فقال: ما نسيتُ، هل تدري ما الأُمَّة وما القانت؟ فقلت: الله أعلم، فقال: الأمة الذي يعلِّم الخير، والقانت: المطيع لله ﷻ وللرسول، وكان معاذ يعلِّمُ الناس الخير، ومطيعًا لله ﷻ، ورسوله ﷺ(١).

وعن شهر بن حوشب قال: كان أصحاب محمد ﷺ إذا تحدثوا وفيهم معاذ بن جبل، نظروا إليه هيبةً له(٢).

• **صفته وهيئته:**

قال الواقدي عن أشياخٍ له: كان معاذ بن جبل رجلًا طُوالًا، أبيض، حسن الشعر، عظيم العينين، مجموع الحاجبين جعدًا قطَطًا(٣).

وعن أبي مسلم الخولاني قال: أتيت مسجد دمشق فإذا حلقةٌ فيها كهول من أصحاب محمد ﷺ، وإذا شاب فيهم أكحل العينين براق الثنايا، كلما اختلفوا في شيء ردوه إلى الفتى، قال:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٣٠/١)، والحاكم (٣٥٨/٢) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٣١/١).

(٣) القطط: شديد الجعودة، وقيل: حسن الجعودة، بمعنى اجتماع الشعر بعضه إلى بعض بخلاف السَّبْط. وانظر: «لسان العرب» (ص٦٣١).

قلت لجليس لي: من هذا؟! قال: هذا معاذ ابن جبل فوقعت محبته في قلبي[١].

- **من أحواله بالليل:**

عن ثور بن يزيد قال: كان معاذ بن جبل إذا تهجَّد من الليل قال: اللّٰهُمَّ قد نامت العيون، وغارت النجوم، وأنت حيٌّ قيوم، اللّٰهُمَّ طلبي للجنة بطيء، وهربي من النار ضعيف، اللّٰهُمَّ اجعل لي عندك هدى تردُّه إليَّ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد[٢].

- **جوده وكرمه وزهده:**

أرسل عمر غلامه إلى أبي عبيدة رضي الله عنه بِصُرَّةٍ من مال، فقسمها في الحال، ثم أرسل عمر غلامه إلى معاذ رضي الله عنه بِصُرَّةٍ فيها أربعمائة دينار، وقال له: اذهب بها إلى معاذ وتَلَهَّ في البيت ساعةً حتى تنظر ما يصنع، فذهب بها إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك، فقال: رحمه الله ووصله، تعالي يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، واذهبي إلى بيت

---

(١) سير أعلام النبلاء، (٤٠٠/١).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير»، (٣٤/٢٠) رقم ٤٨ وأبو نعيم في «حلية الأولياء»، (٢٣٣/١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٦/١٠): رواه الطبراني وإسناده منقطع.

فلان بكذا، فاطَّلَعَتْ امرأته، فقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا، ولم يَبْقَ في الخرقة إلا ديناران فرمى بهما إليها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فَسُرَّ بذلك، فقال عمر: «إنهم إخوة بعضهم من بعض»[(١)].

وعن عبد الله بن سلمة قال: قال رجل لمعاذ: علمني، قال: وهل أنت مطيعي؟ قال: نعم، إني على طاعتك لحريص، قال: صم وأفطر، وصَلِّ ونَمْ، واكتسب ولا تأثم، ولا تموتَنَّ إلا وأنت مسلم، وإياك ودعوةَ المظلوم[(٢)].

وكان يمشي مع أصحابه فيقول: اجلسوا بنا نؤمن ساعة[(٣)].

- **مرضه ووفاته:**

وقع الطاعون بأرض الشام، فلما اشتد قام فيهم أبو عبيدة خطيبًا، فقال: أيها الناس إن هذا الوجع رحمة ربكم، ودعوة

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٧٤) والطبراني في«المعجم الكبير» (٣٣/٢٠) رقم (٤٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٣٧/١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، (٣٠٩/٣): رواه الطبراني في «الكبير». ومالك الدار لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٨٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢٣٣/١).

(٣) أخرجه أبو عبيد القاسم ابن سلام في «الإيمان» (٢٠) وابن أبي شيبة في «الإيمان» (١٠٣) وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٢٦٨/١) رقم ٧٩٦، وذكره البخاري تعليقًا (٩٣/١).

نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له منه حظه.

وأصابه بعد ذلك الطاعون، فمات رضي الله عنه ، ثم تولى إمارة الناس بعده معاذ بن جبل، فقام خطيبًا بعد ذلك، فقال: أيها الناس إن هذا الوجع رحمة ربكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وإن معاذًا يسأل الله أن يقسم لآل معاذ منه حظه.

فأُصيب ابنه عبد الرحمن به، فمات، وكذا ابنه الآخر، فمات، ثم قام، فدعا ربه لنفسه فطُعِنَ في راحته.

قال شهر بن حوشب (الراوي): فلقد رأيته ينظر إليها، ثم يقبل ظهر كفه، ثم يقول: ما أُحِبُّ أن لي بما فيكِ شيئًا من الدنيا، فمات، واستخلف على الناس عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وقيل: إنه لما طُعِنَ ابناه قال لهما: كيف تجدانِكما؟ قالا: يا أبانا ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧].

فقال: وَأَنَا ستجدانني إن شاء الله من الصابرين.

ثم طُعِنَتِ امرأتاه فهلكتا، ثم طُعن هو بعد ذلك.

قال بعض من حضر وفاته رضي الله عنه: لما حضره الموت قال: انظروا، أصبحنا؟ قال: فأُتِيَ فقيل: لم نصبح، حتى أُتِيَ في بعض ذلك، فقيل له: قد أصبحتَ، فقال: أعوذ بالله من ليلةٍ صباحها

إلى النار، مرحبًا بالموت مرحبًا، زائرٌ مُغِبٌّ (أي: بعيد الزيارة)، حبيبٌ جاء على فاقة، اللّٰهُمَّ إني كنت أخافك، وأنا اليوم أرجوك، إنك لتعلم أني لم أكن أُحب الدنيا وطول البقاء فيها لِكَرْيِ الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُّكَبِ عند حِلَقِ الذِّكْرِ[1].

واتفقوا على أن معاذًا مات بطاعون عمواس، بناحية الأردن من الشام سنة ثماني عشرة هجرية، وكان عمره ثلاثًا وثلاثين سنة، أو ثمانيًا وثلاثين سنة.

وعن سعيد بن المسيب قال: رُفِعَ عيسى ابن مريم وهو ابن ثلاث وثلاثين، ومات معاذ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنةً.

مروياته:

رُوِيَ له سبعة وخمسون ومائة حديثٍ.

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٨٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء»، (٢٣٩/١).

أهمية الحديث ومنزلته

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه الوصية وصية عظيمة جامعة لحقوق الله، وحقوق عباده»[1].

قال المناوي: «هذا الحديث من القواعد المهمة؛ لإبانته خير الدارين، وتضمنه لما يلزم المكلف من رعاية حق الحق والخلق، وقيل: هو جامع لأحكام الشريعة كلها، وقد اشتمل على ثلاثة أحكام؛ كل منها جامع في بابه، ومترتب على ما قبله»[2].

قال الجرداني الدمياطي: «هذا الحديث حديث عظيم وقاعدة من قواعد الدين، وقد اشتمل على ثلاثة أشياء: حق الله، وحق المكلف، وحق العباد.

فأمَّا حق الله فحيثما كنتَ فاتَّقِهِ، وأما حق المكلف فهو إتْبَاعُ السيئة بالحسنة، وأما حق العباد فهو معاشرتهم بالأخلاق الحسنة»[3].

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٤١١/١).

(٢) «فيض القدير» (١٥٧/١).

(٣) «شرح الجرداني على الأربعين» (ص١٣٥).

شرح المفردات

«**اتق الله**»: اجعل بينك وبين عذاب الله، وأسباب سخطه وقاية.

«**حيثما**»: حيث: ظرف مكان يضاف للجُمَل، والمراد بها هنا التعميم، أي: في أي مكان، وعلى أي حال كنتَ فيها.

و(**ما**): زائدة.

«**تمحها**»: أي: تزيلها، وتُذْهِبها.

و«**الخُلُق**»: بضم الخاء واللام، هو الطبع والسجية والعادة والسلوك، وعرَّفه الغزالي بقوله: «هيئة للنفس تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير فكر ورَوِيَّة، فإن كانت الأفعال الصادرة محمودةً عقلًا وشرعًا سُمِّيَتْ خُلُقًا حسنًا، وإلا فَسَيِّئًا».

الشرح الإجمالي

جمع هذا الحديث بين كيفية معاملة العبد لربه، ومعاملته لنفسه، ومعاملته للناس.

فقوله ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت**»: هو علم معاملة العبد لربه، وقوله ﷺ: «**وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا**»: يتعلق بمعاملة العبد لنفسه، وقوله ﷺ: «**وخَالِقِ الناسَ بخلق حسن**»: يتعلق بمعاملته للناس كافة، ولفظ «الناس» عامٌّ أُرِيدَ به الخاص؛ ليخرج منه المبتدع والفاجر والفاسق والكافر، فهؤلاء لهم معاملة أخرى سيأتي بيانها.

وقد يقال: إنَّ زجر هؤلاء واعتزالهم من الإحسان إليهم؛ لأنه ربما دفعهم إلى الصلاح.

وفي الحديث الحثُّ على تقوى الله تعالى في علاقة الإنسان بربِّه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بالآخرين.

وضابطُ ذلك: التزامُ المأمورات، واجتنابُ المنهيات في هذه الأبواب جميعها، وهذا هو مدار التقوى وقُطْب رحاها ومعناها.

والحديث يرسم خطة للإنسان المسلم توصِّله إلى ربِّه سالمًا من أدران الانحراف عن الجادَّة، نقيًّا من أسباب اللَّوم، لعلها: اللُّؤم وشَيْن المعصية، ونار العار بين الخَلْق بسوء الخُلُق مع الخالق أو المخلوق.

الشرح التفصيلي

❁ **قوله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت»:**

المخاطَبُ بذلك:

إما أن يكون الخطاب لمعاذ، أو لأبي ذَرٍّ، وأحدهما يسمع، أو لغيرهما، وهما يسمعان.

أو لهما، أي: قال لكل منهما ذلك، فلو قال لهما مجتمِعَين لقال: اتقيا الله حيثما كنتما[1].

وأَيًّا ما كان الأمر فاللفظ شاملٌ لجميع الأمة المسلمة، كما هو الحال في جميع الأوامر والمناهي الشرعية.

ولعظيم شأن التقوى وخطورة أمرها نوليها اهتمامًا خاصًا، لتوضيح كل ما يتعلق بها، وذلك في فوائد ست[2]:

- **الفائدة الأولى**: في معنى التقوى.
- **الفائدة الثانية**: في أقسام التقوى.
- **الفائدة الثالثة**: في شرف التقوى وأهميتها.
- **الفائدة الرابعة**: في صفات أهلها.

---

(١) مختصر النبراوي (ص٦١).

(٢) استفدت من كتاب «التقوى» للشيخ أحمد فريد.

- **الفائدة الخامسة**: في ثمراتها العاجلة والآجلة.
- **الفائدة السادسة**: في طريق تحصيل التقوى.

الفائدة الأولى: في معنى التقوى:

التقوى في اللغة: اتخاذ الوقاية من كل ما يُخاف منه.

يقال: وَقَاهُ اللهُ السوءَ وِقَايَةً: حَفِظَهُ، والوِقَاءُ -مثل: كِتَابٍ-: كُلُّ ما وَقِيتَ به شيئًا، واتَّقَيْتَ اللهَ اتِّقاءً، والتَّقْوَى اسمٌ منه[١].

وشرعًا: هي كلمة جامعة لفعل المأمورات، وترك المنهيات، فهي شاملة لأصول الدين وفروعه.

وحقيقتها متوقفةٌ على العلم؛ لأن الجاهل لا يدري، أي شيء يتقي، ولا كيف يتقيه، وبذلك تظهر فضيلة العلم، ففي «الصحيحين» عن معاوية رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين**»[٢].

وعلى هذا فإن أصل التقوى أن يعلم العبد ما يُتقى، وكيف يُتقى.

قال ابن رجب: «وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه -من غضبه وسخطه وعقابه- وقايةً تقيه

---

(١) «لسان العرب» (١٥/٤٠١)، و«مختار الصحاح» (ص٧٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧١، ٣١١٦، ٧٣١٢)، ومسلم (١٠٣٧).

من ذلك، وهي فعل طاعته، واجتناب معاصيه»[(١)].

وقد وَرَدَ في القرآن والسنة إضافة التقوى إلى اسم الله سبحانه، وكذلك إلى عقاب الله، وبيان ذلك كالتالي:

- تضاف التقوى تارةً إلى اسم الله ﷻ، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٣٠] [المائدة: ٩٦]، وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

فإذا أضيفت إليه التقوى كان المعنى: اتقوا سخطه وغضبه، وهو أعظم ما يُتَّقى، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي.

قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران:٣٠].

وقال تعالى: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦] فهو سبحانه أهل لأن يُخْشى ويُهابَ ويُجَلَّ ويُعَظَّمَ في الصدور.

- وتارةً تضاف التقوى إلى عقاب الله، وإلى مكان العقاب كالنار، وإلى زمانه كيوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١].

ويدخل في التقوى الكاملة: فعل الواجبات، وترك المحرمات، واتقاء الشبهات؛ ويدخل فيها بعد ذلك: فعل المندوبات، وترك المكروهات.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٤١١/١).

قال الحسن: المتقون اتقوا ما حُرِّم عليهم، وأدَّوا ما افْتُرِضَ عليهم.

وأما التقوى فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بالآمر، وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالناهي، وخوفًا من وعيده.

كما قال طلق بن حبيب: إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى، قالوا: وما التقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله.

وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى، فإنَّ كلَّ عملٍ لا بد له من مبدأ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض، لا العادة، ولا الهوى، ولا طلب المحمدة والجاه وغيرها، بل لا بد أن يكون مبدؤه محضَ الإيمان، وغايتُهُ ثوابَ اللهِ وابتغاءَ مرضاته، وهو الاحتساب[1].

(١) «الرسالة التبوكية» (ص١٠).

ومما قيل في معنى التقوى

قال الغزالي: «وأنا وجدت التقوى بمعنى: اجتناب فضول الحلال، وهو ما روي في الخبر المشهور عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما سُمي المتقون متقين؛ لتركهم ما لا بأس به حذرًا مما به بأس**»[1].

وقال الحسن: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الحرام.

وقال أحمد بن حنبل: التقوى هي ترك ما تهوى لما تخشى.

وقال الثوري: إنما سموا متقين؛ لأنهم اتقوا ما لا يُتقى.

وقال ابن رجب: وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات، كما قال أبو هريرة، حينما سئل عن التقوى: هل أخذتَ طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعتَ؟ قال: إذا رأيتُ الشوك عَدَلْتُ عنه أو جاوزته، أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى.

وأخذ هذا المعنى ابن المعتز، فقال:

خَـلِّ الذُّنُـــوبَ صَـغِيْرَهَا وَكَبِيْرَهَـــــا ذَاكَ التُّـــقَى

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥١)، وابن ماجه (٤٢١٥)، والطبراني في «الكبير» (١٦٩/١٧) رقم ٤٤٦، والحاكم (٣١٩/٤)، بنحوه، وفي سنده عبد الله بن يزيد الدمشقي ضعيف.

وَاصْـنَعْ كَمَـاشٍ فَـوْقَ أَرْ ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَـا يَـرَى
لَا تَحْقِـرَنَّ صَغِـيْرَةً إِنَّ الجِبَالَ مِـنَ الحَصَـى[1]

الفائدة الثانية: أقسام التقوى:

قال الغزالي في «منهاج العابدين»[2]:

التقوى في القرآن تطلق على ثلاثة أشياء:

١- بمعنى الخشية والهيبة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١].

٢- بمعنى الطاعة والعبادة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢].

قال ابن عباس: أطيعوا الله حقَّ طاعته.

وقال مجاهد: هو أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنْسى، وأن يُشكر فلا يُكفر.

٣- تنـزيه القلب عن الذنوب، وهي حقيقة التقوى دون المعنيين الأولين؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور:٥٢]، فذكر الطاعة، ثم الخشية، ثم ذكر التقوى، فدلَّ هذا على أن التقوى معنى

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/٤١٥).
(٢) «منهاج العابدين» (ص٧٢- ٧٣) باختصار.

سوى الطاعة والخشية، وهو تنـزيه القلب عن المعاصي والذنوب. اهـ. وذلك على منازل ثلاثة:

- تقوى عن الشرك.
- تقوى عن البدعة.
- تقوى عن المعصية.

ولقد ذكرها الله تعالى في آية واحدة، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:٩٣].

ففي هذه الآية نجد أن المراد بالتقوى في الموضع الأول: التقوى عن الشرك، والإيمان الذي في مقابلتها هو التوحيد.

وفي الموضع الثاني: التقوى عن البدعة، والإيمان الذي ذكر معها: الإقرار بعقيدة أهل السنة والجماعة.

وفي الموضع الثالث: التقوى عن المعاصي، ولا إقرار في هذه المنزلة، فقابلها بالإحسان، وهو الطاعة والاستقامة عليها، فتكون منزلة مستقيمي الطاعة.

فالآية جمعتْ ذِكْرَ المنازل الثلاثة: منـزلة الإيمان، ومنـزلة السنة، ومنزلة استقامة الطاعة.

الفائدة الثالثة: شرف التقوى وأهميتها:

١- التقوى هي وصية الله للأولين والآخرين:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١].

قال الغزالي: «أليس اللهُ تعالى أعلمَ بصلاح العبد من كلِّ أحد! أوليس هو أنصح له وأرحم وأرأف من كل أحد! ولو كانت في العالم خصلةٌ هي أصلحُ للعبد، وأجمعُ للخير، وأعظمُ للأجر، وأجلُّ في العبودية، وأعظمُ في القدر، وأولى بالحال، وأنجحُ في المآل من هذه الخصلة التي هي التقوى لكان الله تعالى أَمَرَ بها عباده وأوصى خواصَّه بذلك؛ لكمال حكمته، وسعة رحمته، فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة، وجمع الأولين والآخرين من عباده في ذلك واقتصر عليها، علمتَ أنها الغاية التي لا يُتَجاوز عنها، ولا مقصود دونها... وعلمتَ أنها هي الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، الكافية لجميع المهمات المبلِّغة لأعلى الدرجات، وهذا أصلٌ لا مزيد عليه، وفيه كفاية لمن أبصر النور واهتدى، وعمل بذلك واستغنى»[(١)].

٢- التقوى وصية النبي ﷺ للأمة:

لما خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع يوم النحر وصَّى

(١) «منهاج العابدين» (٧٢ – ٧٣) باختصار.

الناس بتقوى الله، فقال: «**يا أيها الناس اتقوا الله وإِنْ أُمِّرَ عليكم عبدٌ حبشي مُجَدَّع، فاسمعوا له وأطيعوا ما أقام فيكم كتاب الله**»(١).

ولما وعظ ﷺ الناس قالوا له: كأنها موعظة مودِّعٍ فأَوْصنا؛ قال: «**أُوصيكم بتقوى الله ﷻ والسمع والطاعة**»(٢).

قال ابن رجب في شرح هذا الحديث: «فهاتان الكلمتان تجمعان سعادة الدنيا والآخرة، أما التقوى فهي كافلة سعادة الدنيا والآخرة لمن تمسك بها، وهي وصية الله للأولين والآخرين، وأما السمع والطاعة لولاة الأمور ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معايشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم»(٣).

وبالتقوى أوصى النبي ﷺ أبا سعيد الخدري حين طلب الوصية، فقال ﷺ: «**أُوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء،**

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٦٤٦، ١٦٦٤٩، ٢٧٢٦٠، ٢٧٢٦٦، ٢٧٢٦٨)، وأصله عند مسلم (١٢٩٨، ١٨٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٤٢، ١٧١٤٤، ١٧١٤٥) والدارمي (٢٢٩/١) رقم ٩٦، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٣) (٤٤) وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٩٦/٢) رقم ١٠٣٧، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وابن حبان (١٧٨/١) رقم ٥، وهو«الحديث الثامن والعشرون» من «الأربعين».

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١٠٦/٢).

وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام»[١].

وكان من دعائه ﷺ: «**اللَّهُمَّ آتِ نفسي تقواها، وزَكِّها أنت خير من زكاها**»[٢].

٣ـ التقوى وصية الأنبياء والصالحين لأقوامهم، والأمراء لأتباعهم:

فقد قال نوح لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٠٦].

وقال هود لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٢٤].

وقال صالح لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٤٢]

وقال لوط لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٦١]

وقال شعيب لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٧٧]

وهكذا كان دأب جميع رسل الله مع أقوامهم، وعلى هذا سار الصالحون في كل زمان.

فهذا الصِّدِّيق يقول حين يخطب الناس: «أما بعد، فإني أُوصيكم بتقوى الله، وأن تُثنوا عليه بما هو أهله».

وَوَصَّى الصِّدِّيقُ عمرَ رضي الله عنهما حين موته؛ فقال: «اتق الله يا عمر».

وكتب عمرُ لابنه عبد الله يوصيه؛ فقال: «أما بعد، فإني

---

(١) أخرجه أحمد (١١٧٧٤)، وأبو يعلى (١٠٠٠)، والطبراني في «الصغير» (٩٤٩)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (٣٤).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢١).

أُوصيك بتقوى الله تعالى، فإنه من اتقاه وقاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده، فاجعل التقوى نُصْبَ عينيك وجلاء قلبك»[١].

وكذا عَمِلَ عليُّ بن أبي طالب، وسائر السلف المبارك.

وكتب رجلٌ من السلف إلى أحد إخوانه؛ فقال: أُوصيك بتقوى الله؛ فإنها أكرمُ ما أَسررتَ، وأزينُ ما أَظهرتَ، وأفضلُ ما ادَّخرتَ، أعاننا الله وإياك عليها، وأوجب لنا ولك ثوابها.

٤ـ التقوى أفضلُ لباسٍ:

وقد قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف:٢٦].

قال ابن عباس ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾: «العمل الصالح»، وعنه: «السمت الحسن في الوجه»[٢].

وقال أبو العتاهية:

إِذَا الْـمَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التُّـقَى ... تَقَلَّـبَ عُرْيَانًـا وَإِنْ كَانَ كَاسِـيَا

وقال آخر:

وَخَيْرُ لِبَاسِ الْـمَرْءِ طَاعَـةُ رَبِّـهِ ... وَلَا خَيْرَ فِـيْمَنْ كَانَ للهِ عَاصِـيَا

---

(١) «جامع العلوم والحكم»(٤١٨/١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤٠١/٣).

٥- التقوى أفضل الزاد:

قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال ابن كثير: «لَـمَّا أمرهم بالزاد للسفر عن الدنيا، أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال تعالى: ﴿وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦] لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشدًا إلى اللباس المعنوي، وهو الخشوع والطاعة والتقوى، وذَكَرَ أنه خير من هذا وأنفع، قال عطاء الخراساني في قولـه: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ يعني: زاد الآخرة»[١].

الفائدة الرابعة: صفات أهل التقوى:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما السابقون المقربون فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولًا من وصف حالهم، وعدم الاتصاف به، بل ما شممنا له رائحة، ولكن محبة القوم تحمل على تَعَرُّفِ منـزلتهم، والعلم بها، وإن كانت النفوس مُتخلفةً منقطعة عن اللحاق بهم»[٢].

إذًا فما الفائدة مِنْ ذِكْرِ صفات المتقين والكلام على التقوى؟

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥٤٨/١).

(٢) «طريق الهجرتين» (٣١٩) باختصار.

يقول ابن القيم مجيبًا:

في معرفة حالهم فوائد عديدة، منها:

١- ألَّا يزال المتخلف المسكين مُزْرِيًا على نفسه ذامًّا لها.

٢- ومنها: ألَّا يزال منكسرَ القلب بين يدي ربه تعالى ذليلًا له، يشهد منازل السابقين وهو في زمرة المنقطعين، ويشهد بضائع التجار وهو في رفقة المحرومين.

٣- ومنها: أنه عساه أن تنهض همتُه يومًا إلى التشبث والتعلق بساقة القوم، ولو من بعيد.

٤- ومنها: أنه لعله أن يصدق في الرغبة واللَّجأ إلى من بيده الخير كله أن يُلْحقه بالقوم، ويهيئه لأعمالهم، فيصادف ساعةَ إجابةٍ لا يَسألُ اللهَ فيها شيئًا إلا أعطاه.

٥ – ومنها: أن هذا العلم هو من أشرف علوم العباد، وليس بعد التوحيد أشرف منه، وهو لا يناسب إلا النفوس الشريفة، ولا يناسب النفوس الدنيئة المهينة، فإذا رأى نفسه تناسب هذا العلم، وتشتاق إليه وتحبه، وتأنسُ بأقله فليبشرْ بالخير، فقد أُهِّل له، فليقل لنفسه: يا نفس قد حصل لك شطرٌ فاحرصي على الشطر الآخر.

٦ – ومنها: أن العلم بكل حال خير من الجهل.

٧ – ومنها: أنه إذا كان هذا العلم بهذا الشأن همه ومطلوبه فلا بد أن ينال منه بحسب استعداده، ولو لحظة، ولو بارقة، ولو أنه يحدِّث نفسه بالنهضة إليه.

٨ – ومنها: أنه لعله يجري منه على لسانه ما ينتفع به غيرُه بقصده، أو بغير قصده، والله لا يضيع مثقال ذرة، فعسى أن يرحم العالم بذلك.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإياك أن تظن أنك بمجرد علم هذا الشأن قد صرت من أهله، هيهات، ما أظهر الفرق بين العالم بوجوه الغنى وهو فقير وبين الغني بالفعل، وبين العالم بأسباب الصحة وحدودها وهو سقيم وبين الصحيح بالفعل».[1] اهـ

لأجل ما تقدم نشرع في ذكر أوصاف المتقين:

١ – أنهم يؤمنون بالغيب:

والغيب ما غاب عن الحواس، وهذه الصفة أخص خصائصهم، وهي التي تدعوهم إلى الامتثال بفعل الواجب وترك المحرم خشية ما آمنوا به بالغيب.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾

(١) «طريق الهجرتين» (٣٢٠/١) باختصار.

[البقرة:٢،٣].

٢ – هم أصدق الناس قولًا وعملًا وإيمانًا وتصديقًا للمرسلين:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣].

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال القاسمي: «أولئك الذين صدقوا في إيمانهم؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فلم تغيرهم الأحوال، ولم تزلزلهم الأهوال، وفيه إشعار بأن من لم يفعل أفعالهم لم يصدق في دعواه الإيمان ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل، وتكرير الإشارة لزيادةِ تنويهٍ بشأنهم، وتوسيط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم»[(١)].

٣ – هم أكثر الناس تعظيمًا لشعائر الله، وتوقيًا لحرماته:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى

(١) «محاسن التأويل» للقاسمي (٤٨٥/١).

﴿ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

والشعائر: جمع شعيرة، وهي كل شيء لله تعالى فيه أَمْرٌ أَعلمَ الناسَ به وأَشعَرَهم.

ومنه: شعار القوم في الحرب، أي: علامتهم.

وشعائر الإسلام هي أعلام الدين، ولا سيما مناسك الحج.

وأضاف التقوى إلى القلب؛ لأنه محلها، وفى حديث النبي ﷺ: «**التقوى هاهنا**، ويشير إلى صدره ثلاثَ مراتٍ»[١] فالمتقون يعظمون أوامرَ اللهِ ومناهيَهُ.

- قال أنس رضي الله عنه: «إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نَعُدُّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات». قال البخاري: «يعني بذلك: المُهْلكات»[٢].

- وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه، فقال به هكذا»[٣].

٤- هم أكثر الناس تحرِّيًا للعدل والإنصاف مع الموافق والمخالف:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٨).

قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٨].

أي: لا يحملنكم بغضُكم لأحد على أن تتركوا العدل فتعتدوا عليه.

وقد قال ﷺ -في العدل وبيان ملازمة التقوى له-: «**اتقوا الله، واعدلوا بين أولادكم**»(١).

٥ – يحبون العفو والصفح وكظمَ الغيظِ:

قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٧].

وقال سبحانه -في وصف المتقين-: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤].

يُرْوَى أن عائشة أغاظها خادم لها، فقالت: «لله در التقوى ما تَرَكَتْ لذي غيظ شفاءً».

٦- يَدَعُون ما لا بأس به حذرًا مما به بأس:

عن ابن عمر قال: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر»(٢).

ورُوِيَ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يبلغ العبد أن يكون من

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٧) ومسلم (١٦٢٣).

(٢) أخرجه البخاري أول كتاب «الإيمان» (٩/١) تعليقًا مجزومًا به.

المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس»[١]. وهو حديثٌ ضعيفٌ من قِبَلِ إسناده وروايته، وعلى أية حال فمعنى الحديث صحيح، وعليه عمل السلف في ترك الريب وما حاك في الصدر، وما لم يتيقَّنْ مِنْ حُكْمِ الشبهات[٢].

مسألة مهمة:

قال ابن رجب: والتدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يصلُح لمن استقامت أحواله كلها، وتشابهت أعماله في التقوى والورع، فأمَّا من يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة، ثم يريد أن يتورع عن شيء من دقائق الشبهة فإنه لا يُحْتَمَلُ له ذلك، بل يُنْكَرُ عليه، كما قال ابن عمر -لمن سأله عن دم البعوض من أهل العراق-: يسألونني عن دم البعوض وقد قتلوا الحسين! وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هما ريحانتاي من الدنيا**».[٣]اهـ

وقال بشر بن الحارث -فيمن أراد أن يطلق زوجته بِرًّا بأمه-: «إِنْ كان قد بَرَّ أُمَّهُ في كل شيء ولم يبق من برها إلا طلاق زوجته

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥١)، وابن ماجه (٤٢١٥)، والطبراني في «الكبير» (١٦٩/١٧) رقم ٤٤٦، والحاكم (٣١٩/٤)، بنحوه، وفي سنده عبد الله بن يزيد الدمشقي ضعيف.

(٢) راجع ما سبق في: شرح «الحديث الحادي عشر» من «الأربعين».

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٥٣) من حديث ابن عمر.

فليفعل، وإن كان يبرها بطلاقها، ثم يقوم بعد ذلك إلى أمه فيضربها فلا يفعل»[١].

وهم مع ذلك الورع ليسوا بمعصومين من الذنوب، ولكنهم لا يقارفون ولا يصرون على الصغائر إذا فَرَطَت منهم، بل يبادرون إلى التوبة، ويُتْبِعون السيئةَ الحسنةَ لتمحها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١]، فالطائفُ هنا الذنبُ، أو الهمُّ بالذنبِ، وقولـه: ﴿ تَذَكَّرُوا۟ ﴾ أي: تَذَكَّروا عقاب الله وثوابه ووعده ووعيده، فتابوا وأنابوا ورجعوا من قريب.

الفائدة الخامسة: ثمرات التقوى العاجلة والآجلة:

أولًا: ثمراتها العاجلة:

١ – تفريج الكربات: قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢،٣].

وقال ابن عباس: مخرجًا ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة[٢].

وقيل: المخرج من كل شيء ضاق على الناس.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢٨٢/١).

(٢) تفسير ابن جرير (٤٣/٢٣).

وقيل: من يَتَّقِ اللهَ في الرزق بقطع العلائق يجعلْ له مخرجًا بالكفاية.

وقيل: من يَتَّقِ اللهَ فيقف عند حدوده، ويتجنب معاصيه يخرجْهُ من الحرام إلى الحلال، ومن الضيق إلى السعة، ومن النار إلى الجنة، ويرزقْهُ من حيث لا يحتسب؛ أي: من حيث لا يرجو.

وقيل: مِنْ علامة التحقق بالتقوى أن يأتي المتقيَ رزقُهُ من حيث لا يحتسب، فإن أتاه من حيث يحتسب فما تحقق بالتقوى.

وقيل في سبب نزول هذا المقطع من سورة الطلاق أنَّ رجلًا من أصحاب النبي ﷺ يقال له عوف بن مالكٍ الأشجعي كان له ابنٌ وأنَّ المشركين أَسَروه، فكان أبوه يأتي النبيَّ ﷺ فيشكو إليه مكانَ ابْنِهِ وحاله التي هو بها وحاجته، فكان رسول الله ﷺ يأمره بالصبر ويقول له: «**إنَّ الله سيجعل لكَ فَرَجًا**» فلم يلبث بعد ذلك إلَّا يسيرًا أَنِ انْفَلَتَ ابنُه من أيدي العدو، فمرَّ بغنمٍ من أغنام العدو فاستاقها فجاء بها إلى أبيه، وجاء معه بغنمٍ قد أصابه من المغنم، فنزلت فيه هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق:٢،٣][(١)].

٢- السهولة واليسر في كل أمر:

---

(١) أخرجه ابن جرير (٤٤/٢٣) بإسنادٍ مرسلٍ من قول السُّدِّي، به. لكنه يستأنس به في تأكيد المعنى المراد هنا؛ والله أعلم.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق:٤].

قال مقاتل: ومن يَتَّقِ اللهَ في اجتناب معاصيه يجعلْ له من أمره يسرًا في توفيقه للطاعة.

واليسر في الأمر غاية ما يرجوه الإنسان، وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبد من عباده، فلا عنت ولا مشقة، ولا عسر ولا ضيق، يأخذ الأمور في شعوره وتقديره وينالها بيسر في حركته وعمله، ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها، ويعيش من هذا في يسر رَخِيٍّ نديٍّ حتى يلقى الله ﷻ[1].

٣- تيسير تعلم العلم النافع:

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة:٢٨٢].

قال البيضاوي: كرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث لاستقلالها، فالأولى حثٌّ على التقوى، والثانية وعدٌ بإنعامه، والثالثة تعظيمٌ بشأنه.

وليس معنى الآية: أن العلم يحصل بغير التعلم، وإنما العلم بالتعلم؛ لأن العطف يقتضي المغايرة هنا والاستقلال.

---

(١) «في ظلال القرآن» (٦/٣٦٠٢).

٤ – حصول البصيرة:

قال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال:٢٩].

فالفرقان هو الفارق بين الحق والباطل، وهو النور الذي يُقذَف في قلب المتقي فيفرق بين دقائق الشبهات التي تلتبس على كثير من الناس.

وسُمي القرآن فرقانًا؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، كما يفرق نور الفجر بين الليل والنهار.

٥- محبة الله ﷻ ومحبة ملائكته وأولياء الله الصالحين للمتقين:

قال تعالى:﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:٧٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم:٩٦].

وفي «الصحيحين»: «**إذا أحب الله العبد قال لجبريل: إني أَحببتُ فلانًا فَأَحِبَّهُ، فيحبه جبريل عليه السلام، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله قد أحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»(١).

وكتب أبو الدرداء إلى مسلمة بن مخلد وهو أمير على مصر:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٩، ٦٠٤٠، ٧٤٨٥)، ومسلم (٢٦٣٧).

سلام عليك، أما بعد، فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله، فإذا أحبه الله حببه إلى خلقه، وإذا عمل بمعصية الله أبغضه الله، وإذا أبغضه الله بَغَّضه إلى خلقه[١].

وعن هرم بن حيان: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلَّا أقبلَ الله بقلوب المؤمنين عليه حتى يرزقهم مودته[٢].

٦- معية الله ونصرته وتأييده:

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٩٤]، وهي معيته بالتأييد والنصر والتسديد.

قال قتادة: ومن يَتَّقِ الله يَكُنْ معه، ومن يَكُنِ الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل.

وكتب بعض السلف إلى أخيه: أما بعد، إن كان الله معك فمن تخاف! وإن كان عليك فمن ترجو![٣]

٧- نزول البركات من السماء، وخروج الخيرات من الأرض:

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

---

(١) «التمهيد» (٢٤٠/٢١).

(٢) «التمهيد» (٢٤٠/٢١).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٤٩٤/١).

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦].

قال ابن القيم -يصف زمان العدل والتقوى-: «... وتُخْرِجُ الأرضُ بركتها، وتعود كما كانت، حتى إن العصابة من الناس ليأكلون الرُّمَّانةَ، ويستظلون بقحفتها، ويكون العنقود من العنب وَقْرَ بعيرٍ، ولبن اللقحة الواحدة يكفي الفئام من الناس؛ وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى»[1].

٨- البشرى الصالحة في الحياة، وعند الممات:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس:٦٣،٦٤].

وسئل النبي ﷺ عن ذلك، فقال: «**الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو تُرى له**»[2].

وعن عطاء قال: لهم البشرى عند الموت، تأتيهم الملائكة بالرحمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

---

(١) «الجواب الكافي» (ص٦٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤٧٩).

وأما البشرى في الآخرة فتتلقَّاهم الملائكة مبشرين بالفوز والكرامة، وما يَرَوْنَ من بياض وجوههم، وإعطاء الصحائف بأيمانهم، وما يقرأون منها، وغير ذلك من البشارات.

وقيل: البشرى: محبة الناس له والذِّكْرُ الحسن[١].

٩- الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم:

قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:١٢٠].

قال ابن كثير: «يرشدهم الله تعالى إلى السلامة من شر الأشرار، وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن»[٢].

١٠- حفظ الذرية الضعاف بعد موت عائلهم:

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء:٩].

فمن أراد حِفْظَ عياله من بعده فليتَّقِ اللهَ حتى يحفظهم الله من بعده، ويغشاهم بعنايته ورحمته.

---

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (٤٢١/٢٠).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١٠٩/٢).

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف:٨٢].

قال محمد بن المنكدر: إن الله لَيَحْفَظُ بالرجل الصالح ولدَهُ، وولدَ ولدِهِ، وقريته التي هو فيها، والدُّوَيْرات التي حولها، فما يزالون في حفظ الله وستره.

وقال سعيد بن المسيب لابنه: يا بني إني لأزيد في صلاتي من أجلك رجاءَ أن أُحفظَ فيك، وتلا الآية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾[1].

١١- التقوى سبب ومفتاح القبول:

قال تعالى:﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

قال بعض السلف: لو أعلمُ أن الله يتقبل مني سجدةً بالليل وسجدةً بالنهار لطِرتُ شوقًا إلى الموت، إن الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١٢- التقوى سبب النجاة من عذاب الدنيا:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/٤٨٩-الحديث ١٩).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت:١٧،١٨].

١٣- الهيبة في الظاهر والحلاوة والرضا في الباطن:

قال ابن رجب -في شرح حديث: «**ما ذئبان جائعان**» في سياق ذِكْره ما يُنعِمُ اللهُ به على المتقين- قال: ومما يجعله الله لهم في الدنيا: مِنْ شرف التقوى وهيبة الخلق لهم في الظاهر، ومن حلاوة المعرفة والإيمان والطاعة في الباطن، وهي الحياة الطيبة التي وعدها الله لهم في الدنيا، وهذه الحياة لم يذقها الملوك في الدنيا، ولا أهل الرياسات والحرص على الشرف.

ولذا قال ابن المبارك: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه -من السعادة- لجالدونا عليه بالسيوف[1].

إن الدنيا جَنَّة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

أَلَا إِنَّمَا التَّقْوَى هِيَ الْعِزُّ وَالْكَرَمْ وَحُبُّكَ الدُّنْيَا هُوَ الذُّلُّ وَالسَّقَمْ

وكان الإمام مالك بن أنس يُهابُ أن يُسْأَلَ، حتى قال فيه القائل:

يَدَعُ الْجَوَابَ وَلَا يُرَاجِعُ هَيْبَةً وَالسَّائِلُونَ نَوَاكِسُ الْأَذْقَانِ

نُورُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى فَهْوَ الْمَهِيْبُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

١٤- مضاعفة الحسنات:

---

(١) «الجواب الكافي» (ص١٢١).

قال أبو الدرداء: يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم، كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم، والذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادةً من المغترين [١].

وهذا من أدلِّ الدلائل على عظيم فقه الصحابة وتقدمهم على مَنْ بعدهم.

قال ابن القيم: «فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه، لا ببدنه، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب، لا تقوى الجوارح»[٢].

والأعمال تُضَاعَفُ حسناتها بحسب ما في القلوب من أحوال.

وكم من مُصَلٍّ لا صلاة له، وكم من مُصَلٍّ لا يكتب له من صلاته إلا عشرها أو ربعها أو ثلثها.

وكم من متصدق لا تضاعف حسناته، ومنهم من يضاعف الله له إلى أضعاف كثيرة، وكما قيل: كم من قائم محروم، وكم من نائم مرحوم، هذا قام وقلبه فاجر، وهذا نام وقلبه عامر.

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِكَ الْـمُدَلَّـلِ تَمْشِي الْـهُوَيْنَى وَتَجِي فِي الْأَوَّلِ

- **وأما الثمرات الآجلة للتقوى، فمنها:**

١- تكفير السيئات، وعِظَمُ الأجر في الجنات والنجاة من النار:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢١١/١).

(٢) «الفوائد» (ص١٤١).

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ [الطلاق:٥].

قال ابن كثير: يُذْهِبُ عنهم المحذورَ، ويُجْزِلُ لهم الثوابَ على العمل اليسير (١).

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المائدة:٦٥].

وقال تعالى -في بيان من يصدرُ عن النار بعد الورود-: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾ [مريم:٧٢، ٧١].

٢- تسَنُمُ المرتبة العليا فوق الخلق يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة:٢١٢].

فهم في عليين، والكفار في أسفل سافلين.

قال الراغب الأصفهاني: يحتمل قوله تعالى: ﴿فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ وجهين:

أحدهما: أن حال المؤمنين في الآخرة أعلى من حال الكفار في الدنيا.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١٥٢/٨).

والثاني: أن المؤمنين في الآخرة في الغرفات، والكفار في الدرك الأسفل من النار.

٣- نيل الدرجة العليا من الجنة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ:٣١].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم:٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [القلم:٣٤].

فهم الورثة الشرعيون لجنَّةٍ عرضها السموات والأرض.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٤،٥٥] أي: مقربين عند مليكٍ كلُّ شيء تحت ملكه وقدرته وقهره.

٤ – أهل التقوى يحشرون إلى الجنة ركبانًا وزمرًا:

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق:٣١].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم:٨٥].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في دار

الدنيا، واتبعوا رسله، وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمروهم، وانتهوا عما زجروهم- أنه يحشرهم يوم القيامة وفدًا إليه، والوفد هم القادمون ركبانًا، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه»[١].

وقال الزمخشري: «ما يحشرون والله على أرجلهم، ولكنهم على نوق رحالها ذهب، وعلى نجائب سروجها ياقوت»[٢].

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧٣] أي: جماعةً؛ المقربون، ثم الأبرار، ثم كل طائفة مع ما يناسبها.

٥- التقوى تجمع بين الأحباب، وتنـزع من الصدور ما كان من غل الدنيا:

قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

قال الزمخشري: «تنقطع في ذلك اليوم كل خُلَّة بين المتخاللين في غير ذات الله، وتنقلب عداوة ومقتًا، إلا خُلَّة المتصادقين في الله؛ فإنها الخلَّة الباقية المزدادة قوة»[٣].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/٢٦٣).

(٢) «الكشاف» (٣/٤٢).

(٣) «الكشاف» (٣/٢٦٣).

وقد قيل: ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

ومن بركة التقوى: أن الله ينزع من القلوب ما قد يَعْلَقُ بها من الضغائن والغل، فتكمل المودة، وتتم الصحبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٥-٤٧].

الفائدة السادسة: طريق تحصيل التقوى:

التقوى: فعل المأمورات، واجتناب المنهيات، والمداومة على ذلك إلى الممات.

فإنْ قيل: كيف يتحقق ذلك؟

فالجواب: يتحقَّق ذلك بخمسة أمور، هي:

١- محبة الله ﷻ.

٢- مراقبة الله ﷻ.

٣- معرفة ما يلقى الإنسان بسبب المعاصي والآثام من شرور وآلام.

٤- معرفة سبيل مغالبة الهوى، واجتناب الردى، وطاعة المولى.

٥- معرفة طرق الشيطان المَرِيد في إضلال العبيد، ومِنْ ثَمَّ

الحذر منها.

وتفصيل ذلك كالتالي:

- **أولاً: محبة الله تعالى:**

تعريفها: المحبة غليان القلب عند الاهتياج إلى لقاء المحبوب. قال ابن القيم: «المحبة شجرة في القلب، عروقها الذل للمحبوب، وساقها معرفته، وأغصانها خشيته، وورقها الحياء منه، وثمرتها طاعته، ومادته التي تسقيها ذِكْرُهُ، فمتى خلا الحب عن شيء من ذلك كان ناقصًا»[1].

درجاتها: «**ومحبة الله درجتان**:

إحداهما: فرضٌ لازم، وهي أن يحب الله سبحانه محبة توجب له محبة ما فرضه الله عليه، وبغض ما حرمه عليه، ومحبة لرسوله المبلِّغ عنه أمره ونهيه، وتقديم محبته على النفوس والأهلين، والرضا بما بلَّغه عن الله من الدين، وتلقي ذلك بالرضا والتسليم، ومحبة الأنبياء والرسل والمتَّبِعين لهم بإحسان جملة وعمومًا لله ﷻ، وبغض الكفار والفجار جملة وعمومًا لله ﷻ، وهذا القدر لا بد منه في تمام الإيمان الواجب.

الدرجة الثانية: درجة السابقين المقربين، وهي أن ترتقي

---

(١) «روضة المحبين» (ص٤٠٩).

المحبة إلى محبة ما يحبه الله من نوافل الطاعات، وكراهة ما يكرهه من المكروهات، وإلى الرضا بما يقدره ويقضيه مما يؤلم النفوس من المصائب والآفات»[١].

فضلها: قال ابن القيم: ولو لم يكن في المحبة إلا أنها تنجي مُحِبَّهُ من عذابه لكان ينبغي للعبد ألا يتعوض عنها شيئًا أبدًا[٢].

وسئل بعض العلماء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟.

فقال: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة:١٨]»[٣].

الأسباب الجالبة للمحبة:

١ - قراءة القرآن بالتدبر؛ فإنه جامع لمنازل السائرين وأحوال العاملين.

٢ – الإكثار من النوافل بعد الفرائض، وفي الحديث القدسي: «**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه**»[٤].

٣ – إيثار محبوباته ﷻ على محبوبات النفس، بفعل ما يحبه، وترك

---

(١) انظر «الاتحافات السنية» للمناوي (ص١٦٢).

(٢) «طريق الهجرتين» (ص٤٧٥).

(٣) «روضة المحبين» (ص٤١٦).

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

ما يكرهه.

٤ – مطالعة أسمائه وصفاته ومشاهدتها بالقلب، والتقلب في رياض معانيها.

٥– دوام ذكره سبحانه بالقلب واللسان، وعلى كل حال.

٦– تَذَكُّرُ نعمه وإحسانه وبره ولطفه بعبده، فالقلوب مفطورة على محبة من أحسن إليها.

٧– المناجاة في الثلث الأخير من الليل، وقت النـزول الإلهي.

٨– مجالسة المحبين الصادقين، واكتساب طريقتهم، والتأدب بآدابهم.

٩– مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين رضا الرب.

١٠– التفكُّر في مصنوعاته الدالة على كمال صانعها، فالقلوب تحب الكمال.

١١– التطلع إلى ما أعده لأهل محبته في الجنات من الإكرام والإنعام.

١٢– الاجتهاد في الطاعات وتكميلها وتحسينها:

وَكُنْ لِرَبِّكَ ذَا حُبٍّ لِتَخْدُمَهُ إِنَّ الْمُحِبِّينَ لِلْأَحْبَابِ خُدَّامُ

- **ثانيًا: مراقبة الله ﷻ:**

وهذا المعنى متضمَّن في قوله ﷺ: «**حيثما كنت**».

أي: زمانًا ومكانًا، سرًّا وإعلانًا، غيبًا وشهادةً، فمن استشعر رقابة الله عليه في كل لحظة، وفي كل حال، فكيف يعصيه، وكيف

ينساه، والله تعالى يقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

ويقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وكان بعض السلف يقول لأصحابه: زَهَّدَنَا اللهُ وإيَّاكم في الحرام زُهْدَ مَنْ قدر عليه في الخَلْوة، فعلم أن الله يراه، فتركه من خشيته.

وقال الشافعي: أعزُّ الأشياء ثلاثة: الجود من قِلَّةٍ، والورع في الخَلْوة، وكلمة الحق عند من يُرجَى ويُخاف[١].

تعريف المراقبة:

المراقبة علم القلب بقرب الرب.

وأنشد الإمام أحمد؛ فقال:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفُلُ سَاعَةً ... وَلَا أَنَّ مَا تُخْفِي عَلَيْهِ يَغِيبُ

وهذه المراقبة تثمر الحياء من الله؛ فإن النبي ﷺ لما أَمَرَ معاذًا بالتقوى[٢] أرشده إلى ما يعينه على حصولها، وتحصيل طريقها، وهو أن يراقبه فيستحي منه، كما يستحي من رجلٍ ذي

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٤٢١/١).

(٢) في حديث الباب في «الأربعين».

هيبة من قومه.

وكان وهيب بن الورد يقول: «خَفِ اللهَ على قدر قدرته عليك، واستحي منه على قدر قربه منك»[١].

وقال سفيان بن عيينة: الحياء أخفُّ التقوى، ولا يخاف العبد حتى يستحي، وهل دخل أهل التقوى في التقوى إلا من الحياء[٢].

وأما حد المراقبة الذي تتحقق به فهو: «**ما كره الله منك شيئًا، فلا تفعله إذا خلوتَ**»[٣].

ومثله: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٤].

قال النووي: «لو قَدَّرنا أن أحدًا قام في عبادة الله، وهو يعاين ربه سبحانه، لم يترك شيئًا مما يقدر عليه؛ من الخضوع والخشوع، وحسن السمت، واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها، إلا أتى به»[٥].

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٤٢٢/١).

(٢) «فيض القدير» (٦٢٣/١).

(٣) أخرجه ابن حبان في «الصحيح» (٤٠٣) و«روضة العقلاء» (ص٢٦)، والضياء في «المختارة» (١٧٩/٤)، ورمز له السيوطي في «الجامع الكبير» بالضعف وحسن الألباني إسناده في «السلسلة الصحيحة» (١٠٥٥).

(٤) جزء من حديث جبريل الطويل، وقد سبق في «الحديث الثاني» من «الأربعين».

(٥) «شرح مسلم» للنووي (١٥٧/١).

وقال ابن رجب: «فمن شق عليه أن يعبد الله كأنه يراه، فليعبد الله على أن الله يراه، ويطلع عليه فيستحي من نظره إليه، كما قال بعض العارفين: اتَّقِ الله أن يكون أهون الناظرين إليك»[١].

فلا شك أن من أعظم ما يعين على التقوى شعور العبد واطِّلاعه بقرب الرب، ومشاهدته له على كل حال.

سُئل الجنيد: بِمَ يُستعان على غض البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق إلى ما تنظره[٢].

- **ثالثا: معرفة ما يلقاه الإنسان بسبب الحرام من شرور وآلام:**

فلو تأملت ما الذي أخرج آدم وزوجه من الجنة ونعيمها إلى الأرض وشرورها ومصائبها، وما الذي أخرج إبليس من رحمة الله إلى لعنته وغضبه، وما الذي أهلك الأمم السابقة من لَدُنِ نوحٍ إلى آخر أمة أهلكها الله بعذابٍ عام (وهم قوم فرعون) لو تأملتَ لعلِمْتَ أن سبب ذلك هو مخالفة أَمْرِ الله ورسله، وارتكاب الحرام من معاصٍ وآثام.

ولو تأملت فساد الرأي، وظلمة القلب، وتعسير الأمور والأحوال، وذهاب البركة، وانطماس نور البصيرة، ونحو ذلك؛

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١٠٨/١).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٤٢٢/١-٤٢٣).

لعلِمْتَ أنه من سبب الذنوب والمعاصي[١].

فكيف يرضى العاقل بالجنة بدلًا، وبالطاعة عوضًا، وبغير الله معبودًا، وبغير النبي متبوعًا؟!

واعلم أنك إن كنت تجد في المعصية لذة، فإن اللذة تزول والإثم يبقى، وإن كنت تجد في الطاعة مشقة، فإن المشقة تزول والأجر يبقى.

تَفْنَى اللَّذَاذَةُ مِمَّـنْ نَـالَ لَذَّتَـهَا ... مِنَ الحَرَامِ وَيَبْقَى الْوِزْرُ وَالْعَـارُ

تَبْقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ مِـنْ مَغَبَّتِهَـا ... لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ

فإذا همَّت نفسُك بالمعصية فذكِّرها بالله، فإذا لم ترجع فذكِّرها بأخلاق الرجال، فإذا لم ترجع فذكِّرها بالفضيحة إذا علم بها الناس، فإذا لم ترجع فاعلم أنك تلك الساعة انقلبت إلى حيوان.

- **رابعًا: معرفة سبيل مغالبة الهوى، ومجانبة الردى، وطاعة المولى:**

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٧-٤١].

وعن أنس بن مالك مرفوعًا: «**ثلاثٌ مُهلكات: شحٌّ مطاع،**

---

(١) انظر: كلام ابن القيم رحمه الله عن «عقوبات المعاصي» في كتابه: «الجواب الكافي» (ص٦٢-٩٠).

وهوًى مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المرء بنفسه»[1].

وما سُمِّيَ الهوى بذلك إلا لأنه يهوي بصاحبه إلى دركاتٍ سحيقة؛ كما قال الشعبي: «إنما سُمِّيَ الهوى؛ لأنه يهوي بصاحبه»[2].

نُوْنُ الْهَوَانِ مِنَ الْهَوَى مَسْرُوْقَةٌ فَإِذَا هَوَيْتَ فَقَدْ لَقِيْتَ هَوَانًا

قال تعالى -في فضيلة من خالف هواه وخاف مولاه-: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] قيل: هو العبد يهوى المعصية، فيذكر مقامَ رَبِّهِ عليه في الدنيا، ومقامه بين يديه في الآخرة، فيتركها لله.

وقد جعل الله تعالى المتَّبَعَ قسمين، لا ثالث لهما: إمَّا ما جاء به الرسول ﷺ، وإمَّا الهوى، فمن اتبع أحدَهما لم يتبعِ الآخرَ.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٤٥٢)، والبزار في «مسنده» (٧٢٩٣) والعقيلي (٤٤٧/٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٦٠/٢، ٣٤٣)، والبيهقي في «الشعب» (٧٣١)، والقضاعي في «الشهاب» (٣٢٥ ـ ٣٢٧) وابن حبان في «المجروحين»، (٢٦٣/١) وفي الباب عن أبي هريرة أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٨٦٥)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٣٤٤)، لكنه يصلُح للاعتبار بمعناه في مثل هذا؛ خاصة أن معناه لا يخرج عن المعنى المقرَّر في الشريعة من غير وجهٍ، كما هو ظاهرٌ.

(٢) أخرجه الدارمي في «سننه» (٤٠٩) واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد»، (٢٢٩)، وأبو نعيم في «الحلية»، (٣٢٠/٤).

أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠].

والهوى مسالكُ ودروبٌ خفية في النفس، فعلى الإنسان أن يتفطن لها، وأن يمنع النفس من هواها.

لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُرَاقِبُ رَبَّهُ ... عَنِ الْهَوَى وَيَخَافُهُ إِيْمَانَا

حَجَبَ التُّقَى سُبُلَ الْهَوَى فَأَخُو التُّقَى ... يَخْشَى إِذَا وَافَى الْمَعَادَ هَوَانَا

وبالجملة فللعبد في ترك المعصية دواعٍ عدةٌ، منها:

١ ـ داعي المحبة يدعوه لترك المعاصي محبةً لله، وإجلالًا أن يُعْصَى في ملكه وسلطانه، وفي أرضه وتحت سمائه.

٢ ـ داعي الرغبة في دار القرار وجنة الخلد؛ لأن من تمتع بالمعصية في الدنيا حُرِمَ لَذَّاتِ الأخرى، وفي الحديث: «**من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة إلَّا أن يتوب**»[1].

٣ ـ داعي الخوف من النار، واتقاء غضب الجبار:

إِذَا مَا هَمَمْنَا صَدَّنَا وَازِعُ التُّقَى ... فَوَلَّى عَلَى أَعْقَابِهِ الْهَمُّ خَاسِئَا

٤ ـ داعي الخوف من العار، واستبقاء الحياء والوقار:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣).

مَـا إِنْ دَعَانِي الْهَـوَى لِفَاحِشَـةٍ إِلَّا نَهَانِي الْـحَيَـاءُ وَالْكَـرَمُ

فَلَا إِلَى فَاحِشٍ مَـدَدْتُ يَـدِي وَلَا مَشَتْ بِي إِلَى رِيْبَـةٍ قَـدَمُ

٥ ـ داعي الخوف مما يعقب المعصية من شرور ومصائب:

وَكَمْ مِنْ مَعَاصٍ نَالَ مِـنْهُنَّ لَـذَّةً وَمَـاتَ فَخَلَّاهَـا وَذَاقَ الدَّوَاهِيَـا

تَصَرَّمُ لَذَّاتُ الْـمَعَاصِي وَتَنْقَضِـي وَتَبْقَى تَبَاعَاتُ الْـمَعَاصِي كَمَا هِيَا

فَيَـا سَوْأَتَـا وَاللهُ رَاءٍ وَسَامِـعٌ لِعَبْدٍ بِعَيْنِ اللهِ يَغْشَى الْـمَعَاصِيَا

٦ ـ داعي العفة والمروءة والشهامة، كما قال الشاعر الجاهلي عنترة:

وَأَغُضُّ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُـوَارِيَ جَـارَتِيَ مَأْوَاهَـا

٧ ـ داعي الحياء من الناس، وهو أدنى المراتب، كما قال بعضهم:

لَمْ يَكُنْ شَأْنِي الْعَفَافُ وَلَكِـنْ كُنْتُ خِلًّا لِزَوْجِهَا فَاسْـتَحيْتُ!

- **خامسًا: معرفة طرق الشيطان المَرِيد في إضلال العبيد، والحذر منها:**

وعداوة الشيطان لبني الإنسان من وجوهٍ عِدَّةٍ، فمن ذلك:

١- أنه عادى أبانا الأوَّلَ آدم عليه السلام، وإذا عادى الأصل فإنه سيعادي الفرع، وكما قيل: عدوُّ جَدِّكَ لَا يَوَدُّكَ.

٢- أن عداوته لبني الإنسان بسبب الدين، لا بسبب الدنيا، فهو

يريد أن يُضِلَّهم ضلالًا بعيدًا، ويأمرهم بالفحشاء والمنكر.

٣- أن عداوته شديدة لصيقة؛ لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدَّمِ، «**إنَّ الشيطانَ يجري مِنِ ابنِ آدمَ مجرى الدَّمِ**»(١).

٤- أن عداوته قوية تُمَكِّنُ منا؛ لأنه يرانا -هو وقبيلُهُ- ولا نراه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وهو يعرض لابن آدم في عقبات كثيرة، هي: الكفر، والبدعة، والكبائر، والصغائر، والمباحات بالاشتغال بها عن الطاعات، والاشتغال بالمفضول عن الفاضل، وتسليط الناس عليه بأنواع الأذى، ولا يسلم منها أحد.

ومعرفة هذه العقبات من أهم ما ينبغي على الإنسان معرفته كيما يتقي شرَّهُ، ويستدفع ضرره.

وطريق نفاذه إلى الإنسان هو الوسوسة؛ ولذا أَمَرَ الله بالاستعاذة منه: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٤،٥].

وقد أَمَرَ الله تعالى بالذِّكْرِ؛ لأنه مطردة للشيطان.

وعلى الإنسان العاقل أن يعلم جملة ما يستعان به على شر

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٣٩، ٦٢١٩، ٧١٧١)، ومسلم (٢١٧٤، ٢١٧٥).

إبليس وجنده، ونذكر من ذلك ما يلي:

١-الاستعاذة: وهي اللجوء إلى الله والاستجارة به من شره.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

٢- قراءة المعوِّذَاتِ: فإنه كما قال ﷺ: «**لم يَتَعَوَّذِ الناسُ بِمِثْلِهِنَّ**»(١).

٣- قراءة آية الكرسي عند النوم: حيث وَرَدَ الأمرُ بذلك(٢).

٤- قراءة سورة البقرة؛ «**إنَّ الشيطانَ يَنفِرُ من البيتِ الذي تُقْرَأُ فيه سورةُ البقرةِ**»(٣).

٥-قراءة خاتمة سورة البقرة؛ لأن «**من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**»(٤).

٦- «**من قال: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، مائة مرة... كانت له حرزًا من الشيطانِ يَوْمَهُ ذلك حتى يُمسي**»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٤)، واللفظ للنسائي (٥٤٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٧٥).

(٣) أخرجه مسلم (٧٨٠).

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٠٩، ٥٠٤٠، ٥٠٥١)، ومسلم (٨٠٧).

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٠٣)، ومسلم (٢٦٩١).

ويلحق بذلك: كثرة الذِّكْرِ، فما أَحْرَزَ العبدُ نفسَهُ بمثل ذِكْرِ الله.

٧- الوضوء والأذان والصلاة في الجماعة.

٨- إمساك المرءِ عن الفضول في طعامه وشرابه وخُلْطَتِه وكلامه.

وقوله ﷺ: «اتق الله...»:

يستلزم أمورًا كثيرة: كالعبادة الخالصة، والطاعة، والذِّكْرِ، والشكرِ، والمراقبةِ، والاستحياءِ.

أما العبادة الخالصة؛ فذلك لقول معاذ بن جبل ﷺ: يُنادَى يوم القيامة: أين المتقون؟ فيقومون في كنف الرحمن، لا يحتجب منهم ولا يستتر، قالوا له: مَنِ المتقون؟ قال: قوم اتَّقَوُا الشِّرْكَ وعبادةَ الأوثان، وأخلصوا العبادة لله (١).

وأما الطاعة والذكر والشكر؛ فذلك لقول ابنِ مسعودٍ ﷺ في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]، قال: أن يُطاعَ فَلَا يُعْصَى، ويُذْكَرَ فلا يُنسى، وأن يُشكَرَ فلا يُكفَرَ (٢).

وأمَّا المراقبة والاستحياء؛ فذلك لقول أبي الدرداء ﷺ: ليتق

---

(١) أخرجه معمر بن عبد الواحد بن الفاخر في كتابه «موجبات الجنة»، (٢١٧/١ رقم ٣١٨)، مطولًا.

(٢) أخرجه الحاكم (٢٩٤/٢)، موقوفًا، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٢٣٦).

أحدُكُمْ أن تلعَنَهُ قلوبُ المؤمنين وهو لا يشعر، يخلو بمعاصي الله فيُلْقِي الله له البغض في قلوب المؤمنين.

وقال أبو سليمان الداراني: الخاسر من أبدى للناس صالحَ عملِهِ، وبارزَ بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد.

ورَاوَدَ رجلٌ أعرابيَّةً فقال: ما يرانا إلا الكواكبُ، قالت: أين مُكَوْكِبُهَا؟!

وقال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السر، فيصبح وعليه مذلته[1].

❁ **قوله ﷺ: «وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا»:**

«**وأتبعْ**»: أي: أَلْـحِقْ.

و«**السيئة**»: ما يسوؤك في آخرتك من المعاصي -صغائرَ كانت أو كبائر- وأصلها (سَيْوِئَةٌ) فقلبت الواو ياءً، وأُدْغمت في الياء الأخرى.

وقيل للعورة: سوءة؛ لأن الإنسان يستاء إذا بدت، والعجب لا ينقضي ممن تتعرى اليوم اختيارًا، ولا يسوؤها ذلك.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

• ولكل من الحسنة والسيئة عدة معانٍ: وفيما يلي بيان كلٍّ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٨٨).

معنًى من معاني الحسنة، وما يضاده من معاني السيئة:

١ – **الحسنة**: التوحيد، وقول: (لا إله إلا الله).

والسيئة: الشرك.

قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٨٩،٩٠] ومثل ذلك في سورَتَي القصص والأنعام.

٢– **الحسنة**: كثرة المطر والخصب والخير.

والسيئة: قلة المطر والقحط والجدب.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

٣– **الحسنة**: العافية.

والسيئة: العذاب في الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [الرعد:٦]. ومن ذلك: أن النبي ﷺ دخل على رجل قد صار كالفرخ، فسأله عن ذلك، فقال: لقد دعوت الله ما كان معذبي به في الآخرة، فليعَجِّلْهُ لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله لا تطيقه –أو لا تستطيعه – أفلا قلت**:﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً

وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]»[1].

٤ – **الحسنة**: العفو وقول المعروف.

والسيئة: القول القبيح والأذى.

قال تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [القصص: ٥٤].

أي: يدفعون بالقولِ المعروفِ والعفوِ القولَ السيئَ والأذى.

٥ – **الحسنة**: النصر والغنيمة.

والسيئة: القتل والهزيمة.

قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٠] يعني: يوم بدر.

﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠] يوم أحد.

٦ – **الحسنة**: الصالحات والطاعات، أو أثرها وثوابها، المكتوبة في صحف الكاتبين.

والسيئة: المعاصي والموبقات، أو أثرها وعقوبتها، المكتوبة في صحف الكاتبين.

- قوله ﷺ: «**وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا**»:

بعد أن بيَّن رسول الله ﷺ علاقة العبد بربه، وبيَّن علاقة العبد بنفسه، ثم علاقته بغيره، أرشده ﷺ إلى ما يَمْحو الله به الخطايا،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٨٨).

ويجبر به نقص التقوى، وما فيه سلامته في الآخرة والأولى، فقال: «**وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها**».

ففي الحديث معنى محاسبة العبد لنفسه، وقد جاء الأمر بمحاسبةِ العبدِ نفسَهُ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر: ١٨].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا**»(١).

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وسبب نزول هذه الآية -كما في «الصحيحين» عن ابن مسعود رضي الله عنه- أن رجلًا أصاب من امرأةٍ قُبلةً، ثم أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له، فسكت النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلت هذه الآية، فدعاه فقرأها عليه، فقال رجل: هذا له خاصة؟ قال: «**بل للناس كافة**»(٢).

---

(١) ذكره معلَّقًا ممرَّضًا الترمذي عقب حديث (٢٤٥٩) وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٦٠٠)، وأحمد في «الزهد» (٦٢٧)، وابن المبارك في «الزهد» (٣٠٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥٢/١)، وله شاهد على الحسن من قوله: أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٣٥٧)، وابن المبارك (٣٠٧)، وأحمد في «الورع» (ص١٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٥٧/٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٦)، ومسلم (٢٧٦٣).

• **فرعٌ**: في الكلام عن معنى قوله ﷺ: «**تَمْحُهَا**»، وهل المراد تمحها من صحف الملائكة، أو المعنى: عدم المؤاخذة عليها:

والكلام عن معنى الحسنة والسيئة في الحديث كالتالي:

• **يحتمل الحديث أن المراد بالحسنة التوبة** التي يُغْفَرُ بسببها للعبد ما قَدَّمَ؛ لأن الله تعالى أخبر في كتابه -في أكثر من موضع- أن من تاب من ذنبه غفر له أو يتوب الله عليه.

١ – قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

قال ابن مسعود: «هذه الآية خير لأهل الذنوب من الدنيا، وما فيها»[(١)].

٢ – وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

٣ – وقال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

٤ – وجاء هذا المعنى أيضًا في حديث قدسي، كما في «الصحيحين»

---

(١) أخرجه أبو القاسم الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (١٧١/١) رقم ٢١٩.

عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ عَبْدًا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ! غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ! غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ! غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ**»[(١)].

٥ – كما ورد هذا المعنى أيضًا في حديث النبي ﷺ؛ ومن ذلك:

ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تُذْنِبُوا لَذَهَبَ الله بكم ولَجَاءَ بقومٍ يُذْنبون، فيستغفرون اللهَ، فيغفرُ لهم**»[(٢)].

٦ – كما ورد هذا المعنى في كلام التابعين من أئمة الدين؛ ومن ذلك:

أ ـ قول عمر بن عبد العزيز: أيها الناس مَنْ أَلَمَّ بذنب فليستغفر الله وليتُبْ، فإن عاد فليستغفر الله وليتب، فإن عاد

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

فليستغفر الله وليتب، فإنما هي خطايا مطوَّقة في أعناق الرجال، وإن الهلاكَ كلَّ الهلاك في الإصرار عليها [١].

ب- وقيل للحسن: ألا يستحي أحدنا من ربه، يستغفرُ من ذنوبه، ثم يعود، ثم يستغفر، ثم يعود؟ فقال: ودَّ الشيطان لو ظفر منكم بهذه، فلا تمَلُّوا من الاستغفار [٢].

٧-والجمهور على القطع بقبول التوبة لمن تاب إلى الله توبةً نصوحًا؛ لقوله ﷺ في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «**إن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب تاب الله عليه**»[٣].

• **ويحتمل أن يكون المراد بالحسنة أعم من التوبة**[٤]**؛ فيشمل الحسنات الماحية؛ وذلك لما يلي:**

١- ما رواه أبو بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما من رجل يذنب ذنبًا، ثم يقوم فيتطهر، ثم يصلي، ثم يستغفر اللهَ إلَّا غفر الله له**»[٥].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢٩٦/٥).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٤٠).
(٣) أخرجه البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).
(٤) وذكر ابن عثيمين أنه الصواب (شرح الأربعين ص١٩٦).
(٥) أخرجه أحمد (٢) والترمذي (٤٠٦)، والنسائي في «الكبرى» (٥١/١٠ رقم

ثم قرأ الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

2 – حديث عثمان قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: «**من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صَلَّى ركعتين لا يُحَدِّثُ فيهما نفسَهُ، غفر له ما تقدم من ذنبه**»(١).

٣ – وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قام وصلى ركعتين، أو أربعًا يُحْسِنُ فيهما الخشوع، ثم استغفر الله غفر له**»(٢).

ومثل ذلك الأحاديث التي وردت في الخصال المكفرة كالوضوء وإسباغِهِ، والمشيِ إلى المساجدِ، وصيامِ رمضانَ، وعاشوراء، وعرفة، والمتابعةِ بين الحج والعمرة، وذِكْرِ الله بعد الصلاة، ونحو ذلك.

=

١١٠١٢)، وفي «عمل اليوم والليلة» (٤١٥)، وابن ماجه (١٣٩٥)، والحميدي (٤-٥)، وقال الترمذي: حديث حسن.

(١) البخاري (١٥٩، ١٦٤، ١٩٣٤، ٦٤٣٣)، ومسلم (٢٢٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٥٤٦)، والطبراني في «الأوسط» (١٨٦/٥) رقم (٥٠٢٦) وفي «الدعاء» (١٨٤٨)، وهو حديث حسن.

فإذا قلنا بالقول الأول، وهو أن الحسنة المقصودة: هي التوبة؛ كانت السيئة المقصودة شاملة للصغائر والكبائر.

وإذا قلنا بأن الحسنة هي أعم من التوبة، فتشمل صالح الأعمال، كفعل الفرائض والنوافل كانت السيئة المقصودة هي الصغائر دون الكبائر.

أو يقال: الحسنة بالنسبة للكبائر هي التوبة؛ وذلك لأن الكبائر لا تُكَفَّرُ إلا بتوبة، أو عقوبة في الدنيا، أو الآخرة؛ ودليل ذلك: أن الكبائر لو كُفِّرَتْ بفعل الفرائض كصوم رمضان والصلاة والحج ونحوها لم يَبْقَ لأحدٍ ذنبٌ يَدخلُ به النار إذا أتى بالفرائض، وهو قول المرجئة، وهو باطل، وحكى ابن عبد البر الإجماع على بطلان هذا القول.

ومن الأدلة على ذلك: قوله ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مُكَفِّرَاتٌ ما بينهن إذا اجْتَنَبَ الكبائرَ**»[1].

فهذا يدل على تكفير الصغائر مطلقًا، ما لم يُصِرَّ عليها صاحبُها؛ لأنها تتحوَّل إلى كبيرةٍ بالإصرار ونحوه (كالافتخار والمجاهرة).

وأما ما ثبت في «الصحيحين» عن أنس قال: كنت عند النبي ﷺ فجاءه رجل، فقال: يا رسول الله، إني أصبتُ حدًّا فَأَقِمْهُ عليَّ! قال: ولم يسأله عنه، فحضرت الصلاة، فصلى مع النبي ﷺ،

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣).

فلما قضى النبيُّ ﷺ الصلاة قام إليه الرجل، فقال: يا رسول الله، إني أصبت حدًّا فأقم فيَّ كتابَ الله، قال: «**أليس قد صليت معنا؟**» قال: نعم قال: «**فإن الله قد غفر ذنبك**» أو قال: «**حدَّك**»[(١)].

قال النووي -في شرح مسلم-: «وقوله: «أصبتُ حدًّا» هذا الحد معناه معصية من المعاصي الموجبة للتعزير، وهي هنا من الصغائر؛ لأنها كَفَّرَتْها الصلاةُ، ولو كانت كبيرةً موجبةً لحدٍّ، أو غير موجبة له لم تسقط بالصلاة». [(٢)]اهـ

فالحد هنا هو من معاصي الله؛ لأن حدود الله هي محارمه ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

فالحَدُّ مشتركٌ لفظيٌّ يدلُّ على أكثر من معنًى؛ من ذلك: معاصي الله ومحارمه، كما في الآية المذكورة.

كما يدلُّ على الحدود الشرعية المستلزمة للعقوبة والقصاص.

كما يُستخدم في معنى الضابط، يُقال: حدُّ المسألة كذا، أو ضابطُ المسألة كذا.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٢٣)، ومسلم (٢٧٦٤).

(٢) «شرح النووي على مسلم» (٨١/٧).

كما يُستخدم في معنى الفاصل بين أمرين أو شيئين، ومنه: إهدار الشُّفْعة بعد تقسيم الأراضي والدور وبناء الحدود؛ يعني: الجسور الفاصلة.

والذي يرجح معنى دون غيره هو السياق الدالُّ على ذلك.

وقد دلَّ سياق حديث أنسٍ المذكور على أنَّ المراد بالحدِّ هنا: معصية من المعاصي التي لا تستلزم حدًّا؛ إذْ لا تسقط الحدود الشرعية بأداء الفرائض والنوافل، ولا سيما إذا رُفِعَتْ إلى السلطان.

وقال ابن مسعود: «**الصلوات كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر**»(١).

فالصحيح أن الكبائر لا تُكَفَّرُ بدون التوبة؛ لأن التوبة فرض على العباد، وقد قال ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

وقد فَسَّرَ التوبةَ هنا بأنها الندم كلٌّ من: ابنِ مسعودٍ، وعُمرَ، وعليٍّ، وغيرِهِمْ من الصحابة رضي الله عنهم، وفَسَّرَهَا غيرُهم بالعزم على عدم العودة.

ومن الأدلة على أن الكبائر لا تُكَفِّرُهَا الحسنات الماحيات:

حديث عبادة بن الصامت قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «**بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا ولا تزنوا**»

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» رقم (١٤٧).

(وقرأ عليهم الآية) «**فمن وفَى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا، فستره الله عليه، فهو إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له**»[(١)].

ووجه الدلالة من هذا الحديث أن قوله: «**فهو إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له**» صريح في أن من لقي الله بها غير تائب، ولم يُقَمْ عليه الحدُّ في الدنيا كان تحت مشيئة الله تعالى، إن شاء الله عذبه، وإن شاء غفر له، وهو يدلُّ على أن إقامة الفرائض لا تكفِّرُها ولا تمحوها؛ فإنَّ عامة المسلمين يحافظون على الفرائض، لا سيما من بايعهم النبي ﷺ.

وأما الصغائرُ واللَّمَمُ فتكفرها الأعمالُ الواجباتُ، والمستحبات، والمصائبُ، والملمَّاتُ، واجتنابُ الكبائر الموبقات، ومحضُ عفوِّ رَبِّ الأرض والسموات، وإن لم تحصل بخصوصها توبة.

ومن العلماء من أوجب التوبة من الصغائر، ومنهم من لم يوجبها، ومنهم من قال: يجب أحد الأمرين: التوبة، أو الإتيان ببعض الأعمالِ المكفِّرَةِ.

فرع: في الفرق بين تكفير السيئات ومغفرتها:

وفي ذلك أقوال:

---

(١) أخرجه البخاري (١٨)، وفي مواضع عديدة، ومسلم (١٧٠٩).

١ – أنهما متقاربان.

٢ – قيل: المغفرة ستر الذنوب، وقيل: سترها مع الوقاية من شرها، وبهذا يسمى ما يستر الرأس ويقيه في الحرب مِغْفَرًا، وليس كل ما يستر الرأس يقال له: مغفر.

٣ – وقيل: التكفير محو أثر الذنب حتى كأنه لم يكن، والمغفرة تتضمن ذلك، مع إفضال الله على العبد وإكرامه.

٤ – وقيل: المغفرة بالحسنات؛ فتقلب السيئات إلى حسنات، والتكفير يكون بالمكفرات التي تمحو فقط، وذلك محل نظر.

٥– وقيل: المغفرة لا تحصل إلا مع عدم العقوبة والمؤاخذة؛ لأنها وقاية شر الذنب تمامًا، والتكفير قد يقع بعد العقوبة؛ فإن مصائب الدنيا كلها مكفرات للخطايا، وهي عقوبة.

٦- وقيل: الأعمال التي يقع بها التكفير يكون ثوابها في الغالب التكفير فقط، فهي من جنس مخالفة الهوى، واجتناب الكبائر، في حين أن الأعمال التي تُغْفر بها الذنوب ما عدا ذلك من وجوه الطاعات العملية كالذِّكْرِ.

وقد يجتمع في تلك الأعمال تكفيرُ السيئات، وزيادة الدرجات؛ لأن العمل قد يجتمع فيه أمران: رفعةُ الدرجات، وتكفيرُ السيئات، كما في حديث: نقل الخُطَا إلى المساجد، والشهادة.

معنى محو السيئات:

ظاهر معناه: أن السيئات تُمْحَى حقيقةً بالحسنات، وقالت به طائفة.

وهذا من فضل الله ﷻ على العباد؛ وذلك لأننا لو رجعنا إلى العدل لكانت الحسنة لا تمحو السيئة إلا بالموازنة، وظاهر الحديث العموم.

وهل يشترط أن ينوي بهذه الحسنة أنه يمحو السيئة التي فعل؟

فالجواب: ظاهر الحديث أن مجرد فعل الحسنات يُذْهِبُ السيئات، وهذا من نعمة الله ﷻ على العباد، ومن مقتضى كون رحمته سبقت غضبه(١).

وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**أَلَا أَدُلُّكم على ما يمحو الله به الخطايا**»(٢).

وقال بعض التابعين: إن صاحب اليمين أمير (أو قال: أمين) على صاحب الشمال، فإذا عمل ابن آدم سيئة، فأراد صاحبُ الشمال أن يكتبها، قال له صاحب اليمين: لا تعجل لعلَّهُ يعمل حسنة، فإن عمل حسنة، ألقى واحدة بواحدة، وكتب له تسع حسنات(٣).

---

(١) انظر: «شرح الأربعين» لابن عثيمين (ص١٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥١).

(٣) ذكره أبو نعيم في الحلية (٢/٢٥٥).

قال ابن مسعود: وددت أن صُوْلِـحْتُ على أني أعمل كل يوم تسع خطيئات وحسنة[١].

وهذه إشارة إلى أن الحسنة يُمْحَى بها تسعُ خطيئاتٍ ويفضل له ضعف واحد من ثواب الحسنة[٢].

وعن عبد الله بن عمرو قال: من ذكر خطيئة عملها، فَوَجِلَ قلبُهُ منها، فاستغفر الله ﷻ لم يحبسها شيء حتى يمحوَها عنه الرحمن.

وعن عطية العوفي: بلغني أنه من بكى على خطيئته مُحِيَتْ عنه، وكُتِبَتْ له حسنةٌ[٣].

وقال الحسن البصري وبلال بن سعد الدمشقي وغيرهما: لا تُمحى الذنوب من الصحف بتوبة ولا غيرها؛ بل لا بد أن يقف العبد على ما قَدَّمَتْ يداه، ويراه يوم القيامة، وإنْ تجاوز الله عنه.

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧،٨].

وعن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر: كيف سمعتَ رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعتُهُ يقول:

---

(١) أخرجه وكيع في الزهد رقم (٢٧٧)، وابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٥٥٤٨).
(٢) «جامع العلوم والحكم» (٤٤١/١).
(٣) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا، (ص٥٠).

«يُدْنَى المؤمنُ يوم القيامة من ربه ﷻ، حتى يضع عليه كنَفَهُ، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أي رَبِّ أعرف، قال: فإني قد سترتُهَا عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، فيُعْطَى صحيفةَ حسناتِهِ، وأما الكفار والمنافقون فيُنادَى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على الله»[١].

قال الحسن في العبد يُذْنِبُ، ثم يتوبُ ويستغفر: يغفر له، ولكن لا يمحوه من كتابه، دون أن يوقفه عليه، ثم يسأله عنه، ثم بكى الحسن بكاءً شديدًا، وقال: لو لم نَبْكِ إلا للحياءِ من ذلك المقام لكان ينبغي لنا أن نبكي[٢].

وقال بلال بن سعد: إن الله يغفر الذنوب، ولكن لا يمحوها من الصحيفة، حتى يوقفه عليها يوم القيامة، وإن تاب[٣].

وعن أبي عثمان النهدي -وهو من المخضرمين-[٤] عن سلمان قال: «يُعْطَى الرجل صحيفته يوم القيامة، فيقرأ أعلاها فإذا سيئاته، فإذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها، فإذا حسناته، ثم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤١، ٤٦٨٥، ٦٠٧٠، ٧٥١٤)، ومسلم (٢٧٦٨)، واللفظ له.
(٢) «جامع العلوم والحكم» (٤٧١/١).
(٣) «جامع العلوم والحكم» (٤٧١/١).
(٤) أي: أسلم زمن النبي ﷺ ولم يلقه.

نظر في أعلاها، فإذا هي قد بُدِّلَتْ حسنات»[١].

وهذه الطائفة قد تحمل قوله ﷺ: «**أَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا**» على معنى محو العقوبة، دون محو الكتابة، فقوله ﷺ: «**تَمْحُها**» كناية على عدم المؤاخذة بها، وإن كانت مثبتة في الصحف.

ويلاحظ أن كلتا الطائفتين قد اتفقتا على محو العقوبة، واختلفتا في محو الكتابة.

وهل الحسنة تمحو عشر سيئات؟

ظاهر الحديث أنها تمحو سيئة واحدة، ولكن أثر ابن مسعود يشهد للتضعيف بأنه يكفر السيئات.

ويشهد للتضعيف حديث النبي ﷺ: «**ما من مسلمٍ يُصيبه أذًى مرضٌ فما سواهُ، إلاَّ حطَّ اللهُ له سيِّئاته، كما تحطُّ الشجرةُ ورقَها**»[٢]، وفيه جمع السيئات.

ويشهد لعدم التضعيف: قول النبي ﷺ في ثواب إتيان المسجد للصلاة: «**لم يَخْطُ خُطوةً إلاَّ رَفَعَهُ اللهُ بها درجةً، وحطَّ عنه خطيئة**»[٣]، أي: واحدة.

وحديث ثوبان عن النبي ﷺ: «**فإنَّكَ لا تسجُدُ للهِ سجدةً إلا**

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/٤٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٦٠)، ومسلم (٢٥٧١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٧)، ومسلم (٦٤٩).

رفعك الله بها درجةً، وحطَّ عنك بها خطيئة»[(١)].

وفي حديث عائشة عن النبي ﷺ: «**ما يصيب المؤمن من شوكةٍ فما فوقها إلَّا رفعه الله بها درجةً، أو حطَّ عنه بها خطيئةً**»[(٢)].

• **فرع**: وهذه السيئات محمولة على ما كان في حق الله، أما ما كان في حق العباد فلا يمحوه إلا الاستحلال من العباد.

ولماذا كانت الحسنة تمحو السيئة؟

لأن الشيء يزول بضده، كما نرى ذلك في المحسوسات، فبالنهار يزول الليل.

• **فإنْ قيل**: مقتضى هذا الكلام أن السيئات تمحو الحسنات؟

فالجواب: ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ، قال: «فإن قيل: فهذا يلزم منه إحباط الحسنات بالسيئات، وهذا قول المعتزلة[(٣)]، والقرآن والسنة قد دلَّا على أن الحسنات هي التي تحبط السيئات لا العكس؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]،

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢).

(٣) وكذا ذكره أبو الحسن الأشعري في: «مقالات الإسلاميين» (ص٤٧٣)، فقال: «وحقيقة قول المعتزلة في الموازنة أنَّ الحسنات تكون محبطة للسيئات وتكون أعظم منها، وأن السيئات تكون محبطة للحسنات وتكون أعظم منها». كذا ذَكَرَ أبو الحسن وابن القيم رَحِمَهُمَا اللَّهُ، وهذا قول لبعض المعتزلة لا جميعهم؛ لأنَّ جمهور المعتزلة على إبطال جميع الطاعات بالسيئة الواحدة، كما سيأتي (ص١٠٥).

وقال النبي ﷺ لمعاذٍ: «**اتَّقِ اللهَ حيثُما كنتَ، وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا، وخَالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ**»، قيل: والقرآن والسنة قد دلَّا على الموازنة، وإحباط الحسنات بالسيئات، فلا يُضْرَبُ كتابُ الله بعضه ببعضٍ، ولا يُرَدُّ القرآنُ بمجرَّد كون المعتزلة قالوه -فِعْلَ أهلِ الهوى والتعصب- بل نقبل الحق ممن قاله، ويُرَدُّ الباطلُ على من قاله.

فأما الموازنة: فمذكورة في سورة الأعراف،(١) والأنبياء،(٢) والمؤمنون،(٣) والقارعة،(٤) والحاقة(٥).

وأما الإحباط، فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [سورة محمد:٣٣]، وتفسير الإبطال ها هنا بالردة؛ لأنها أعظم المبطلات، لا لأن المبطل ينحصر فيها، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الآيات [الأعراف:٨-٩].

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ الآية [الأنبياء:٤٧].

(٣) يعني: قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الآيات [المؤمنون:١٠٢-١٠٣].

(٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ الآيات [القارعة:٦-٩].

(٥) أي: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ الآيات [الحاقة:١٩-٣٧].

صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]، فهذان سببان عَرَضَا بَعْدُ للصدقة فأبطلاها، شَبَّهَ سبحانه بطلانها بالمَنِّ والأذى بحال المتصدق رياءً فى بطلان صدقة كلِّ واحدٍ منهما، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢].

وعن النبي ﷺ قال: «**من ترك صلاةَ العصر فقد حبطَ عملُه**»(١).

وقالت عائشة رضي الله عنها لأم ولد زيد بن أرقم -وقد باع بيع العينة-: «أخبري زيدًا أنه قد أبطل جهادَهُ مع رسول الله، إلا أن يتوب»(٢).

وقد نص أحمد على هذا في روايةٍ؛ فقال: ينبغي للعبد أن يتزوج إذا خاف على نفسه، فيستدين ويتزوج، لا يقع في محظور، فيحبط عمله.

فإذا استقرَّتْ قاعدة الشريعة أن من السيئات ما يحبط الحسنات بالإجماع، ومنها: ما يحبطها بالنصِّ؛ جاز أن تُحْبِطَ

---

(١) في صحيح البخاري (٥٥٣، ٥٩٤).

(٢) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٣٣٠/٥)، والدارقطني (٣٠٠٢)، وعبد الرزاق في المصنف (١٨٤/٨- ١٨٥)، رقم (١٤٨١٢).

سيئةُ المعاوَدَةِ[١] حسنةَ التوبةِ.

وقد دَلَّ القرآن، والسنة، وإجماع السلف على الموازنة، وفائدتها: اعتبار الراجح، فيكون التأثير والعمل له دون المرجوح، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «يُحَاسَبُ الناسُ يوم القيامة، فمن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ومن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة»، ثم قَرَأَ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف:٨-٩] ثم قال: «إنَّ الميزان يخف بمثقال حبةٍ أو يرجحُ» قال: «ومن استوت حسناتُه وسيئاتُه كان من أصحاب الأعراف»[٢]، [٣].

وعلى هذا فهل يحبط الراجح المرجوح حتى يجعله كأن لم يكن؟ أو يحبط ما قابله بالموازنة، ويبقى التأثير للقدر الزائد؟ فيه قولان للقائلين بالموازنة، ينبني عليهما أنه إذا كانت الحسنات أرجح من السيئات بواحدة مثلًا، فهل يدفع الراجح المرجوح جملةً،

---

(١) يعني: المعاودة إلى الذنب بعد التوبة منه.

(٢) أصحاب الأعراف: قومٌ استوتْ حسناتهم مع سيئاتهم. راجع: «تفسير ابن كثير» (٢/٢١٦).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» رقم (٤١١- زوائد نعيم).

فيثاب على الحسنات كلها، أو يسقط من الحسنات ما قابل السيئات، فلا يثاب عليه، ولا يعاقب على تلك السيئات، فيبقى القدر الزائد لا مقابل له، فيثاب عليه وحده؟

وهذا الأصل فيه قولان لأصحاب الموازنة.

وكذلك إذا رجحت السيئات بواحدة، هل يدخل النار بتلك الواحدة التي سلمت عن مقابل، أو بكل السيئات التي رجحت؟ على القولين. هذا كله على أصل أصحاب التعليل والحِكَم»[1].

ومدار الخلاف بين أهل السنة وغيرهم في ذلك: أن أهل السنة يُقرُّون بتدافع الحسنات والسيئات، وهو مبنى الموازنة بين الحسنات والسيئات، وتذهب الحسنةُ عندهم بالسيئةِ، وقد تُبْطِلُ السيئةُ عندهم ثوابَ بعض الأعمال، لكنها لا تُبطل أصل الإيمان، وجميع الأعمال، ولا تَبْطُل جميع الأعمال عندهم إلا بالكفر، وذهب جمهور المعتزلة، والخوارج وغيرهم إلى إبطال جميع الحسنات والأعمال بالسيئة الواحدة تقع من المرء، واختلفوا فيما بينهم:

- **فقال بعضهم**: «إذا ارتكب معصيةً فإنها تحبط مما تقدمها من الطاعات بقدْرها، وارتقى بعضهم إلى أصل الإيمان غير أنه

(١) «مدارج السالكين» (١/٢٧٧ ـ ٢٧٩)، وانظر: «زاد المعاد» (٣/٢٢٣ ـ ٢٢٥).

لا يقول بالتخليد، وأمره موكول إلى الله تعالى، إن شاء عفا عنه برحمته، أو بشفاعة الشافعين، وإن شاء عاقبه بذنوبه، ثم أدخله الجنة برحمته»[١].

- **فأما المعتزلة والخوارج**: فذهب جمهور المعتزلة، وجميع الخوارج إلى إحباط جميع الطاعات بالمعصية الواحدة، فاتفق «مذهب الخوارج المكفرين بالذنب، والمعتزلة المخلِّدِين في النار بالكبيرة التي تقدمها الألوف من الحسنات، فإن الفريقين متفقان على خلود أرباب الكبائر في النار، ولكن الخوارج كفروهم، والمعتزلة فسقوهم، وكلا المذهبين باطلٌ في دين الإسلام، مخالف للمنقول والمعقول»[٢].

قال الإيجي في «المواقف»: «بنى المعتزلة على استحقاق العقاب ومنافاته للثواب واستحقاقه: إحباط الطاعات بالمعاصي، ثم اختلفوا، فقال جمهور المعتزلة والخوارج أيضًا: بمعصية؛ أي: بكبيرة واحدة تحبط جميع الطاعات، حتى أن مَنْ عبد الله طول عمره، ثم شرب جرعة خمر، فهو كمن لم يعبده أبدًا، ولا يخفى

(١) حكى ذلك كله البيهقي في «شعب الإيمان» (١/١٣٥) وردَّه، وأجاب عن أدلَّته.
(٢) «مدارج السالكين» (١/٢٨١).

فساده؛ لأنه إلغاء للطاعات بالكلية، ومنافٍ للعمومات الدالة على ثواب الإيمان والعمل الصالح، قال الآمدي: إذا اجتمع في المؤمن طاعات وزَلَّات فإجماع أهل الحق من الأشاعرة[١] وغيرهم أنه لا يجب على الله ثوابه، ولا عقابه، فإن أثابه فبفضله، وإن عاقبه فبعدله، بل له إثابة العاصي، وعقاب المطيع أيضًا[٢]، وذهبت المرجئة إلى أن الإيمان يُحْبط الزَّلَّات، فلا عقاب على زلةٍ مع الإيمان، كما لا ثواب لطاعة مع الكفر، وقالت المعتزلة: إن كبيرة واحدة تحبط ثواب جميع الطاعات، وإن زادت على زلاته، وذهب الجُبَّائي وابنه إلى رعاية الكثرة في المحبط، وزَعَمَا أنَّ من زادت طاعاته على زَلَّاتِهِ أحبطت عقابَ زَلَّاتِه وكفَّرَتها، ومن زادت زَلَّاتُه على طاعاته أحبطت ثوابَ طاعاته، ثم اختلفا، فقال الجُبَّائي: إذا زادت الطاعاتُ أحبطت الزَّلَّات بأسرها من غير أن ينقص من ثواب الطاعات شيء، وإذا زادت الزَّلَّات أحبطت الطاعات برمتها من غير أن ينقص من عقاب الزَّلَّات شيء،

---

(١) كذا في المصدر.

(٢) وستأتي حكاية هذا المذهب عن الجبرية نفاة التعليل أيضًا، وهذا مخالف للنصوص القرآنية والنبوية؛ لأن الله ﷻ قد وعد بإثابة الطائعين، وعقاب العاصين، ولا أحد أصدق من الله في قولٍ، أو أَوْفَى منه في وَعْدٍ.

وقال الإمام الرازي: مذهب الجبائي أن الطارئ من الطاعات، أو المعصية يبقى بحاله ويسقط من السابق بقدره، ومذهب ابنه أنه يقابل أجزاء الثواب بأجزاء العقاب، فيسقط المتساويان، ويبقى الزائد، وعلى هذا يحمل قوله، وقال الجبائي: يحبط من الطاعات -أي: السابقة- بقدر المعاصي الطارئة من غير أن ينقص من المعاصي شيء أصلًا، فإن بقي له من تلك الطاعات زائد على قدر المعاصي أُثِيبَ به وإلا فلا، ولا يخفى أنه تحكم، وليس إبطال الطاعات بالمعاصي -أي: إبطال قدر من الطاعات السابقة بمساويه من المعاصي الطارئة- أولى من العكس؛ لأنه إبطال أحد المتساويين بالآخر، بل العكس ههنا أولى؛ لما مَرَّ مِن أن الحسنة تجزى بعشر أمثالها والسيئة لا تجزى إلا بمثلها»[1].

- **وأما المرجئة**: فقال أبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ: «واختلفت المرجئة في الموازنة على مقالتين: فقال قائلون منهم: الإيمان يحبط عقاب الفسق؛ لأنه أَوْزَنُ منه، وأن الله لا يُعَذِّبُ موحدًا، وهذا قول مقاتل بن سليمان. وقال قائلون منهم بتجويز عذاب الموحدين، وأن الله يوازن حسناتهم بسيئاتهم، فإن رجحت حسناتهم

(١) كتاب «المواقف» للإيجي (٣/٥٠٢ ـ ٥٠٣).

أدخلهم الجنة، وإن رجحت سيئاتهم كان له أن يعذبهم، وله أن يتفضل عليهم، وإن لم ترجح حسناتهم على سيئاتهم، ولا رجحت سيئاتهم على حسناتهم تَفَضَّلَ عليهم بالجنةِ، وهذا قول أبي معاذ»[١].

- **وأما الأشاعرة**: فقال الآمدي: «إذا اجتمع في المؤمن طاعات وزلات فإجماع أهل الحق من الأشاعرة وغيرهم: أنه لا يجب على الله ثوابه ولا عقابه، فإن أثابه فبفضله، وإن عاقبه فبعدله، بل له إثابة العاصي، وعقاب المطيع أيضًا»[٢].

بل هذا محالٌ في حقِّ الله ﷻ؛ لأنه سبحانه قد وعد الطائعين بالثواب، كما توعَّد العصاة بعقابه، وَوَعْدُ اللهِ لا يتخلَّف ولا يتبدَّل أبدًا؛ فمن ظنَّ أن الله ﷻ يُخلف وَعْدَهُ فقد أعظم على الله الفرية، ونادى على نفسه بالخذلان والشقاء؛ عياذًا بالله من الضلال والعمى.

وإنما يقول بهذا الجبرية نفاة التعليل والحِكَم والأسباب واقتضائها للثواب والعقاب، وهذا مخالفٌ للمنقول والمعقول؛ فأما المنقول: فقد نطق القرآن والسنة بثواب الطائعين، وعقاب العاصين، ووردت النصوص القرآنية والنبوية بثواب الأعمال؛ ولذا

(١) «مقالات الإسلاميين» (ص١٥١).
(٢) «المواقف» للإيجي (٥٠٣/٣).

توارد أهل العلم على التصنيف في ثواب الأعمال، ومكفرات الذنوب[1]، ومن ذلك: الذنوب التي تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، أو الذنوب التي تُكفرها العُمرة والحج، وعُلِمَ من دين الإسلام أنه يَجُبُّ ما قبله، كما تَهدم التوبة ما قبلها وتمحوه.

- «وأما على أصول الجبرية نفاة التعليلِ والحِكَمِ والأسبابِ، واقتضائها للثواب والعقاب:

فالأمر مردودٌ عندهم إلى محض المشيئة من غير اعتبار شيء من ذلك، ولا يُدْرَى عندهم ما يفعل الله، بل يجوز عندهم أن يُعاقِبَ صاحبَ الحسنات الراجحة، ويُثيب صاحبَ السيئات الراجحة، وأن يُدْخِل الرجلين النارَ مع استوائهما في العمل، وأحدهما في الدرك تحت الآخر، ويغفر لزيد ويُعَاقِب عَمْرًا مع استوائهما من جميع الوجوه، ويُنَعِّمُ مَنْ لم يُطعْه قَطُّ، ويُعَذِّبُ مَنْ لم يَعْصِهِ قَطُّ، فليس عندهم سببٌ، ولا حِكْمَةٌ، ولا علةٌ، ولا موازنة، ولا إحباط، ولا تدافع بين الحسنات والسيئات، والخوف على المحسن والمسيء واحدٌ؛ إِذْ مِن الجائز تعذيبهما، وكلُّ مقدورٍ له فجائزٌ عليه، لا يُعْلَمُ امتناعُه إلا بإخبار الرسول أنه لا

(١) وقد صنف الحافظ الدمياطي رَحِمَهُ اللَّهُ كتابًا في «ثواب الأعمال»، كما ألَّف ابن حجر وغيره في «مكفرات الذنوب» أو «أسباب المغفرة».

يكون، فيمتنع وقوعه لمطابقةِ خبره لعلم الله ﷻ بعد وقوعه»[١].

- وهذا كله مناقضٌ لدين الإسلام، ومخالفٌ للكتاب والسنة، وإجماع أهل السنة والجماعة في الموازنة بين الحسنات والسيئات[٢]، وإقامة الميزان في الآخرة، وثواب المطيع على طاعته، وعقاب العاصي على معصيته، وجعل الطاعة سببًا في الثواب، كما أن المعصية سببٌ في العقاب، وترتيب المسببات على أسبابها، على ما وَرَدَ به القرآن، ونطقت به السنة.

قال ابن القيم رحمه الله في كلامه عن غزوة بدر: «وفيها[٣] أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة الماحية؛ كما وقع الجسُّ من حاطبٍ[٤] مكفِّرًا بشهودِهِ بدرًا، فإنَّ ما اشتملت عليه هذه الحسنة العظيمة من المصلحة، وتضمنته من محبة الله لها، ورضاه بها، وفرحه بها، ومباهاته للملائكة بفاعلها؛ أعظم مما اشتملت عليه سيئة الجسِّ من المفسدة، وتضمنته من بغض الله لها، فغلب الأقوى على الأضعف، فأزاله،

(١) «مدارج السالكين» (١/٢٨٠).

(٢) وقد سبقت أدلة ذلك في صدر هذه المسألة عن ابن القيم رحمه الله.

(٣) يعني: غزوة بدر.

(٤) يعني: حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، والحديث المشار إليه: أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

وأبطل مقتضاه، وهذه حكمة الله في الصحة والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات، الموجبين لصحة القلب ومرضه، وهي نظير حكمته تعالى في الصحة والمرض اللاحقين للبدن؛ فإن الأقوى منهما يقهر المغلوب، ويصير الحكم له، حتى يذهب أثر الأضعف، فهذه حكمته في خلقه وقضائه، وتلك حكمته في شرعه وأمره، وهذا كما أنه ثابت في محو السيئات بالحسنات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، وقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١]، وقوله ﷺ: «**وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها**»؛ فهو ثابتٌ في عكسه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢]، وقول عائشة عن زيد بن أرقم أنه لما باع بالعِينة: «إنه قد أبطل جهاده مع رسول الله؛ إلا أن يتوب»، وكقوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري في «صحيحه»: «**من ترك صلاة العصر حبط عمله**»[1]، إلى غير ذلك من النصوص، والآثار

(١) تقدم تخريجه.

الدالة على تدافع الحسنات والسيئات، وإبطال بعضها بعضًا، وذهاب أثر القوي منها بما دونه، وعلى هذا مبنى الموازنة والإحباط»[١].

- ولو كانت السيئات محبِطَةً للحسنات مطلقًا -كما ذهب إليه جمهور المعتزلة والخوارج- ما دخل أحدٌ الجنة، بل وما بقي إسلامٌ أصلًا، وإنما تَحْبَطُ الحسنات والأعمال بالكفر والرِّدَّة، فإذا ارتدَّ أحدٌ عن الإسلام فقد حبط عمله وذهبت حسناته، ويدلُّ على ذلك اجتماع الخير والشر، والحسنات والسيئات في الشخص الواحد، ولو كانت السيئات محبِطَةً لحسنات المسلم مطلقًا لما اجتمعا فيه، ومحالٌ أن يبقى بدون ذنبٍ إلَّا من عصمهم الله ﷻ من عباده، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**لو لم تُذنبوا لَذَهَبَ اللهُ بكم ولَجَاءَ بقومٍ يُذنبون، ثم يستغفرون الله، فيغفر لهم**»[٢]، فدل هذا، وما في معناه على اجتماع الحسنات والسيئات في الشخص الواحد، وأهل السنة «متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين، ويكون محبوبًا لله مبغوضًا له من وجهين أيضًا، بل يكون فيه إيمان

(١) «زاد المعاد» (٣/٤٢٣ - ٤٢٥)، وانظر: «الصلاة وحكم تاركها» (ص٨٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

ونفاق، وإيمان وكفر، ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر، فيكون من أهله؛ كما قال تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران:١٦٧]، وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦] أَثْبَتَ لهم الإيمان به مع مقارنة الشرك، فإن كان مع هذا الشرك تكذيبٌ لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله، وإن كان معه تصديق لرسله، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك؛ لا تخرجهم عن الإيمان بالرسل وباليوم الآخر، فهؤلاء مستحِقُّون للوعيد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر، وشركهم قسمان: شرك خفي، وشرك جلي، فالخفي قد يُغْفَر، وأما الجلي فلا يغفره الله تعالى إلا بالتوبة منه؛ فإن الله لا يغفر أن يُشْرَك به، وبهذا الأصل أثبتَ أهلُ السنة دخولَ أهل الكبائر النار، ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة؛ لما قام بهم من السببين»[1].

فدلَّ هذا كله على الموازنة، وتدافع الحسنات والسيئات في الشخص الواحد، وإحباط الحسنات للسيئات، وعكسه.

قال الحَليميُّ: «ولسنا ننكر أن يحرم اللهُ تعالى المؤمنَ بعضَ جزاء حسناته، ويقلل ثوابه لأجل سيئةٍ أو سيئات تكون منه،

(١) «مدارج السالكين» (٢٨١/١ ـ ٢٨٢).

إنما أنكرنا قولَ مَنْ يقول: إن السيئةَ قد تحبط الطاعة، أو توجب إبطال ثوابها أصلًا، وذلك أنه لم يَأْتِ به كتابٌ ولا خبرٌ، ولا يمكن أن يكون مع ثبوت الخلود للمؤمنين في الجنة»[١].

وذَكَرَ الحليميُّ: «أن سيئات المؤمن متناهية الجزاء، وحسناته ليست بمتناهية؛ لأنَّ مع ثوابها الخلود في الجنة، فلا يُتَوَهَّمُ أن يكون التَّبِعة المتناهية التي يستحقها المؤمن بسيئةٍ، تأتي على ثواب حسنةٍ لا نهاية له»[٢].

ومعلومٌ أنَّ الله ﷻ قد قسَّم السيئات في كتابه، وعلى لسان نبيه ﷺ إلى أقسام؛ فمنها: ما تمحوه الصلاة والصيام، ومنها: ما يكون مثقالَ ذرَّةٍ، ومنها: ما يُوجب الخلود في النار، وهو الكفر والشرك.

قال ابنُ حزم: «فلو كانت كلُّ سيئةٍ أو كبيرة توجب الخلودَ في جهنم، وتحبط الأعمال الحسنة لكانت كلُّ سيئة أو كبيرة كفرًا، ولتساوت السيئات كلها، وهذا خلاف النصوص...، وقد نصَّ تعالى أنَّ الأعمال لا يحبطها إلا الشرك والموت عليه...، فصح أنَّ السيئة لا تحبط الحسنة»[٣]، وحكى عن المعتزلة أنهم خالفوا قوله تعالى:

---

(١) «شعب الإيمان» (١/١٣٦).

(٢) «شعب الإيمان» (١/١٣٦).

(٣) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم (٤/٤١)، والمراد: أن السيئة لا =

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤] فقالوا هم: إن السيئات يذهبن الحسنات، وقالوا: إن الإيمان يضيع ويحبط، وهذا خلاف قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [ال عمران: ١٩٥]، وقالوا هم: إن الخير ساقطٌ بسيئةٍ واحدة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فلو كانت الحسنة لا تُقْبَلُ من صاحب السيئة[1] لم تَمْحُهَا، وقد ثبت بالكتابِ والسنةِ المتواترةِ الموازنةُ بين الحسنات والسيئات، فلو كانت الكبيرة تحبط الحسناتِ لم تَبْقَ حسنة تُوزن معها»[2].

فلا يزول الإيمان كله، ولا يحبط إلا بالكفر، وهذا هو الذي يحبط جميع الأعمال، وأما ما دون ذلك فقد يحبط بعض العمل، كما في آية المنِّ والأذى [البقرة:٢٦٤]؛ فإنَّ ذلك يُبطل تلك الصدقة، ولا يبطل سائر الأعمال غيرها، فعاد الأمر إلى حديث: «**ومَن هَمَّ**

=

تُحبط الحسناتِ مطلقًا؛ فقد صح أن بعض السيئات قد يُحْبط بعض الحسنات على ما مضى وما يأتي.

(١) وهذا من لازم إحباط السيئة للحسنة مطلقًا، وهو قول جمهور المعتزلة وغيرهم، كما سبق.

(٢) «منهاج السنة النبوية» (٥/٢٠٨).

بسيئةٍ وعملها كُتِبَتْ له سيئة»[1]؛ يعني: أن السيئة لا تتجاوز كونها سيئةً؛ سواءٌ في كتابتها، أو العقاب عليها، أو ما قد تُحْبطه من الحسنات، فتُكْتب واحدة، ويُعاقَب صاحبها عليها بعقاب سيئةٍ واحدة، لا تتضاعف، كما هو شأن الحسنة، وتُحْبط ما يُقابل سيئة واحدة، لا تتجاوز ذلك إلى جميع الحسنات والأعمال، كما سبقت حكايته عن جمهور المعتزلة والخوارج وغيرهم، كما تدل كتابة السيئة والعقاب عليها على فساد ما سبقت حكايته عن الأشاعرة والجبرية -نفاة التعليل- من جواز عقاب المطيع وإثابة العاصي؛ فهذا خلاف النصوص الواردة، والوعد الإلهي بالثواب للطائع، والعقاب للعاصي، وما وعد الله به لا يتخلف أبدًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٢٨) من حديث ابن عباس، بلفظٍ مطوَّل؛ بمعناه. وانظر لهذا المبحث أيضًا: «تحفة الأحوذي» (٣٦/١٠)، و«فيض القدير» (٨٥/٤)، و«زاد المعاد» (٤٢٤/٣-٤٢٥)، و«الوابل الصيب» (ص٢٢)، و«مدارج السالكين» (٢٧٨/١).

فائدة متعلقة بهذه المسألة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في كلامٍ له: «المقصود هنا أن الله سبحانه مما يمحو به السيئات: الحسنات، وأن الحسنات تتفاضل بحسب ما في قلب صاحبها من الإيمان والتقوى»[1].

قال: «فالمحو والتكفير يقع بما يتقبل من الأعمال، وأكثر الناس يقصرون في الحسنات حتى في نفس صلاتهم، فالسعيد منهم من يُكْتَبُ له نصفُهَا، وهم يفعلون السيئاتِ كثيرًا؛ فلهذا يُكَفَّرُ بما يُقْبَلُ من الصلوات الخمس شيءٌ، وبما يُقبل من الجمعة شيءٌ، وبما يُقبل من صيام رمضان شيءٌ آخر، وكذلك سائر الأعمال، وليس كُلُّ حسنةٍ تمحو كَلَّ سيئة، بل المحو يكون للصغائر تارة، ويكون للكبائر تارة، باعتبار الموازنة، والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله له به كبائر»[2]. ثم ذَكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ حديث البَغِيِّ التي سَقَتِ الكلبَ العطشانَ فغُفِرَ لها بسبب ذلك، وأحاديث أخرى، ثم قال: «فهذه سَقَتِ الكلبَ بإيمانٍ خالصٍ كان في قلبها فغُفِرَ لها، وإلا فليس كل ما بَغِي سَقَتْ كلبًا يُغْفَرُ لها،

---

(١) منهاج السنة النبوية (١٤٠/٦).

(٢) منهاج السنة النبوية (١٣٥/٦).

وكذلك هذا الذي نَحَّى غصنَ الشوك عن الطريق؛ فَعَلَهُ إِذْ ذاكَ بإيمانٍ خالصٍ، وإخلاص قائم بقلبه، فغُفِرَ له بذلك؛ فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدًا، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، وليس كل مَن نَحَّى غصنَ شوكٍ عن الطريق يُغْفَر له، قال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧] فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا، والله لا يناله الدَّمُ المهراقُ ولا اللحمُ المأكولُ والتصدقُ به، لكن يناله تقوى القلوب...»[(١)].

❁ **قوله ﷺ: «وخَالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ»:**

هذه الجملة معطوفة على ما سبقها، وهذا من باب ذكر الخاص بعد العام، اهتمامًا بشأنه؛ لأنه من أهم خصال التقوى.

- **وقوله ﷺ: «خَالِقْ»**: أي: عَامِلْ.

وفي «الخُلُقِ» مباحثُ، منها:

١- تعريفه:

الخُلُق: بضمتين هو مَلَكَةٌ للنفس تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير فِكْر أو روية. أو هو هيئة راسخة في النفس

(١) «منهاج السنة النبوية» (٦/١٣٦-١٣٧).

تصدر عنها الأفعال بسهولة.

وخرج بقولنا: «مَلَكَة للنفس، أو هيئة راسخة في النفس»: كُلُّ عارض غير مستقر من الأحوال التي تنشأ عنها أفعال.

وخرج بقولنا: «تصدر عن النفس»: ما يصدر عن الجوارح من الأفعال على بعض النوائب والمصائب.

وخرج بقولنا: «من غير فكرٍ أو روية»: ما هو بفكر أو روية وتأمُّلٍ وتدبُّرٍ، فهذا كله لا يُسَمَّى خلقًا، والخُلُقُ هو الأوصافُ التي يعامِلُ بها الإنسانُ غيرَهُ، وهي محمودة ومذمومة.

- فإذا أُضيف الحُسْنُ للخُلُقِ كان المقصود هو:

تلك الملكة النفسية التي تحمل صاحبها على فعل كل جميل.

- وقال الهيتمي في «شرح الشمائل»: هو ملكه نفسانية ينشأ عنها جميل الأفعال، وكمال الأحوال.

- وقال الشيخ محمد رشيد رضا: الخلق الحسن كلمة جامعة للإحسان إلى الناس، وإلى كف الأذى عنهم.[1] اهـ

- والخُلُقُ الحَسَنُ عنه تصدر الأفعالُ المحمودةُ عقلًا وشرعًا، والخلق السيئ عنه تصدر الأفعال المذمومة عقلًا وشرعًا.

- وقد تنوعت عبارات السلف في تعريف حُسْن الخُلق.

---

(١) «شرح الأربعين» (ص٤٦).

فقال الحسن: حسن الخلق الكرم والبذلة والاحتمال.

وقال الشعبي: حسن الخلق البِذْلة والعطية والبِشْر الحسن.

قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: وكان الشعبي كذلك[١].

وقال ابن المبارك: هو بسطُ الوجه، وبَذْلُ المعروفِ، وكفُّ الأذى[٢].

الأذى[٢].

وقال أحمد بن حنبل: حسن الخلق ألَّا تغضبَ ولا تحتدَّ.

وقال أيضًا: حسن الخلق أن تحتمل ما يكون من الناس[٣].

٢ – فضله ومنـزلته:

قدَّمنا أن هذه الجملة من قبيل عطف الخاص على العام تنويهًا بشأنه.

ولأن كثيرًا من الناس من يظن أن التقوى هي القيام بحق الله تعالى دون حقوق عباده، فأخبر النبي ﷺ معاذًا بأن حسن الخلق من أهم ما يعتني به الإسلام، لا سيما لمن كان متصديًا للناس تعليمًا وتأديبًا وقضاءً، كشأن معاذٍ، وشأن كل عالم

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٤٧٧/١).

(٢) أخرجه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٨٧٥)، وذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٤٧٨/١).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٤٧٨/١).

وداعية، وتقوى الله سبيلُ محبة الله للعبد، وحُسْنُ الخُلقِ سبيلُ محبة الخلق للعبد.

وكثيرًا ما يغلب على من يقوم بحق الله ويعتني به أن يهمل حق الناس بالكلية، أو يقصر في حقوقهم، والجمع بين ذلك عزيز جدًّا، لا يقوى عليه إلا الكُمَّلُ من الأنبياء والصديقين.

قال الحارث المحاسبي: «ثلاثة أشياء عزيزة، أو معدومة: حُسْنُ الوجه مع الصِّيانة، وحُسْنُ الخُلُقِ مع الديانة، وحُسْنُ الإخاء مع الأمانة»(١).

ومما يدلُّ على أن حُسْنَ الخُلق من التقوى المأمور بها: قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣،١٣٤].

وقد وَرَدَتْ في فضل حسن الخلق أحاديث، منها:

١ – حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا**»(٢).

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/٤٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (٧٤٠٢، ١٠١٠٦، ١٠٨١٧)، وأبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)،

٢ – وفي حديث أسامة بن شريك قال: قالوا: يا رسول الله! ما أفضل ما أُعْطِيَ المرءُ المسلمُ؟ قال: «**الخُلُقُ الحَسَنُ**»(١).

٣ – وقد أخبر النبي ﷺ بأن الإنسان إذا قام بحق عباد الله فأحسنَ إليهم وحَسَّنَ خُلُقَهُ معهم وصبر على الأذى في سبيل دعوتهم؛ فإنه ينال مرتبة الصائم القائم المعتني بحق الله أعظمَ العناية.

أخرج الإمام أحمد وأبو داود عن عائشة زوج النبي ﷺ أنه قال: «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجاتِ الصائمِ القائمِ**»(٢).

٤– وأخرج ابن حبان بسند صحيح من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأحبِّكم إلى الله وأقربِكم مني مجلسًا يوم القيامة؟** قالوا: بلى. قال: **أحسَنُكُم خُلُقًا**»(٣).

=

وابن حبان (٤٧٩، ٤١٧٦)، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٣٠).

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٥٤) وأبو داود (٢٠١٥، ٣٨٥٥)، والنسائي في «الكبرى» (٥٨٧٥، ٥٨٨١، ٧٥٥٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩١).

(٢) أحمد (٢٤٣٥٥، ٢٤٥٩٥، ٢٥٠١٣، ٢٥٥٣٧)، وأبو داود (٤٧٩٨)، وصححه ابن حبان (٤٨٠)، والحاكم (٦٠/١).

(٣) أخرجه أحمد (٦٧٣٥، ٧٠٣٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٢)، وابن حبان (٤٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو عند البخاري (٥٦٨٨)، ومسلم (٢٣٢١)، وابن حبان (٥٥٥٦) بلفظ: «**إن خياركم أحاسنكم أخلاقًا**»،

=

٥- وعند أبي داود عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «**أنا زعيم ببيت في أعلى الجنة لمن حَسُنَ خُلُقُهُ**»(١).

هذا عن فضله في الآخرة، وأما عن فائدته وثمرته في الدنيا فمعلومة مشهودة، فبه تدوم المحبة، وتكمل المودة، وتتم الألفة بين الأهل والإخوان والأحبة والجيران، بل الأمر أكثر من ذلك؛ حيث إنه يغرس أشجار المودة بين الأعداء.

قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت:٣٤].

وقد وَرَدَ أنه عندما نزل قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ [الأعراف:١٩٩] قال جبريل للنبي ﷺ في تفسير ذلك:

=

لم يذكر فيه المجلس يوم القيامة، وأخرجه أحمد (١٧٢٧٨) (١٧٢٨٩)، وابن حبان (٥٥٥٧) من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٥٣٥). وأخرجه الترمذي (٢٠١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا: أخرجه مسلم (١٦٠١)، وأحمد (١٠١٧٠)، ابن حبان (٩١)، وهو عند الترمذي (١٣١٦) بلفظ: «**أحاسنكم قضاءً**»، وقال: حسن صحيح.

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٦٥٣) وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٤٦٤).

«**تعفو عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ، وتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ**»[(١)].

ورُوِيَ هذا بطرقٍ لا تخلو من مقال عن عقبة بن عامر، وعليِّ ابنِ أبي طالب[(٢)].

ولما مدح الله نبيه ﷺ قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

فكان إذا صافح رجلًا لم ينزع يده من يده حتى يكون الرَّجُلُ هو الذي ينزع، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٦٨٢)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٢٠) بإسنادٍ مرسل.

(٢) حديث عقبة بن عامر عند أحمد (١٧٤٥٢)، وابن أبي الدنيا في «المكارم» (١٩-٢٠)، والروياني (١٥٧)، والحاكم (١٦١/٤-١٦٢)، والبيهقي في «الشعب» (٧٧٢٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٦٩/١٧-٢٧٠) رقم ٧٤١ وحديث عليِّ بن أبي طالب عند الطبراني في «الأوسط» (٥٥٦٧)، والبيهقي في «الكبرى» (٢٣٥/١٠) و«الشعب» (٨٠٧٧)، وله شاهد عن أبي هريرة عند ابن أبي الدنيا في «المكارم» (٢١-٢٣)، والطبراني في «الأوسط» (٩٠٩)، (٥٠٦٤)، والحاكم (٥٦٣/٢)، والبيهقي في «الكبرى» (٢٣٥/١٠) و«الشعب» (٧٧٢٥)، وشاهد ثانٍ عن عبادة ابن الصامت عند البزار (٢٧٢٧)، وشاهد ثالث عن أنس عند البيهقي في «الشعب» (٧٥٨٥)، وشاهد رابع عن عائشة في «الشعب» أيضًا (٨٠٨٠). وشاهد خامس عن معاذ بن أنس عند أحمد (١٥٦١٨)، والطبراني في الكبير (٤١٣/٢)، القضاعي (١٢٨٩)، وشاهد سادس عن عبد الله بن أبي حسين عند معمر في «الجامع» (١٧٢/١١)، وابن أبي الدنيا في «المكارم» (٢٦)، والبيهقي في «الشعب» (٨٣٠٠)، وفي جميعها مقالٌ، لكن لا مانع من الاعتبار بها في مثل هذا، خاصةً أن المعنى ثابتٌ في الشريعة.

الرَّجُلُ هو الذي يصرف، ولم يكن يواجه أحدًا بما يكره، وكان كثيرًا ما يُعَرِّض بالأمور من العقاب ونحوه[١].

وبالجملة فلقد كان خلقه القرآن يأتمر بأوامره، وينزجر بزواجره، ويرضى لرضاه، ويسخط لسخطه ﷺ.

٣- وهل الخُلُقُ الحَسَنُ وَهْبيٌّ جبلِّيٌّ، أمْ يحصلُ بالكسب؟

الجواب: بعضه جِبِلِّيٌّ، وبعضه يحصل بالكسب، قال النبي ﷺ لأشج عبد قيس: «**إن فيك لخُلُقَينِ يحبُّهما الله: الحِلمُ والأناة**»، قال: يا رسول الله، أخلقين تخلَّقْتُ بهما، أم جَبَلَنِي الله عليهما؟ قال: «**بل جَبَلَكَ الله عليهما**»، قال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحب[٢].

فالخلق يكون وَهْبِيًّا، ويكون بالكسب؛ بمعنى: أن الإنسان يُمَرِّنُ نفسه على الخُلق الحسنِ حتى يكون ذا خُلُقٍ حَسَنٍ[٣]، ولو لم يكن ذلك ممكنًا لم يكن لأَمْرِهِ ﷺ به معنى.

- **وقوله ﷺ: «وخَالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ»:**

---

(١) راجع كتاب: «أخلاق النبي ﷺ» لأبي الشيخ الأصبهاني.

(٢) أخرجه مسلم (١٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٨٤)، ولفظ الطبراني في «مكارم الأخلاق» (٣٦/١)، أقرب لما في المتن، والبيهقي في «الكبرى» (١٠٢/٧).

(٣) «شرح الأربعين» لابن عثيمين (ص١٩٧).

هذا أَمْرٌ عامٌّ يشمل جميعَ الناسِ.

فجعل المسلمَ مكلَّفًا بتحسين خلقه مع الفساق والمبتدعة، بل ومع الكفار والظلمة.

بَيْدَ أن هذا الأمر العام مخصوصٌ بمن يستحقه، وبهذا يخرج المبتدع والفاجر والفاسق والكافر.

وبيان ذلك:

أنَّ الله سبحانه قد فرَّق في الأحكام والأوامر المتعلِّقة بالكافر والمنافق من حالٍ إلى حال، فجعل لهم أحكامًا في حال الحرب والجهاد، غير التي لهم في حال السِّلم ودعوتهم إلى الإسلام.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣] و[التحريم:٩]، ووصف الله المؤمنين، فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

وأَمَرَ سبحانه بالغلظة حال إقامة الحدود، وإنكار المنكر؛ تأديبًا للمسلم والذمي، وردعًا للظالم، وذلك من غير تعدٍّ.

قال تعالى -في إقامة الحدود-: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢].

ومع هذا فقد قال سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦]، وذلك حال عَرْضِ الإسلام ومناقشة أهل الشبهات، وطلبًا لتأليف القلوب، «**وما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما كان العنف في شيء إلا شانه**»(١).

قال ابن رجب: «قال بعض أهل العلم: حُسْنُ الخُلقِ كَظْمُ الغيظ لله، وإظهارُ الطلاقة والبشاشة إلَّا للمبتدع والفاجر، والعفو عن الزَّالِّينَ إلَّا تأديبًا، أو إقامةَ حدٍّ، وكفُّ الأذى عن كل مسلم، أو مُعَاهَدٍ إلَّا تغييرَ منكرٍ، أو أخذًا بمظلمةٍ لمظلوم من غير تعدٍّ»(٢).

(١) أخرجه البخاري (٦٣٩٥، ٦٤٠١، ٦٩٢٧)، ومسلم (٢٥٩٢)، واللفظ للنسائي في «عشرة النساء» (١٤٧/١).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٤٧٨/١).

لطائف وملح وآداب
وفوائد تربوية ودعوية

❁ **في قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢].

وقوله ﷺ: «**اتَّقِ اللهَ حيثُمَا كنتَ**»:

دعوة لأهل الإسلام عامة، وللدعاة خاصة أن يتجنبوا أسباب سخط الله تعالى، ومن ذلك ما يلي:

١ – أن يتقوا التعصب المذموم لفرقة، أو طائفة من دون أهل الإسلام والإيمان، المتبعين لسلف الأمة الكرام، ولْيعرفوا الحقَّ حتى يعرفوا رجاله.

٢ – أن يتقوا أن يكون معقدُ الولاء والبراء والحبِّ والبغض أمرًا لم يشرعه الله على لسان رسوله، من انتماءٍ لرايةٍ، أو شيخٍ، أو نحو ذلك.

٣ – أن يتقوا الله في نصرة هذا الدين، فلا يتباغضوا ويتدابروا بسبب القضايا الفروعية التي لم تحسم على مدار القرون السوالف، فليتقوا الله وليصلحوا ذات بينهم، وليشتغلوا بالوقوف صفًّا مشتركًا موحَّدًا ضد الكفر وأهله، والعلمانية وأذنابها.

٤ – أن يتقوا أن يقولوا ما لا يفعلون، ويفعلوا ما لا يؤمرون، وأن يجتنبوا مخالفة الظاهر للباطن.

٥ – أن يتقوا التشدُّق بعبارات منمَّقة، والقلوب غير سليمة، والصدور غير حليمة، والألسنة متخوضة في الباطل، والنفوس تعبث بها الأهواء، والأحكام تطلق على الخلق جزافًا من غير تثبت.

٦ – أن يتقوا الله في إخوانهم الدعاة، فَلْيَسُدُّوا خللَهم وخطأهم، ويجبروا كَسْرَهم، ولا يفرحوا بزلَّاتهم، ولا يضخموا سلبياتهم، لا سيما ما كان منشؤه الضعف البشري، دون تَبَنٍّ لبدعةٍ، أو أصل يخالف أصول أهل السنة.

٧– أن يتقوا الله أن يكون البديل عن النهي عن التعصب المذموم هو الفوضوية والتسيُّب فيما يقومون به من أعمال، وليكن البديل هو الاجتماع على أصول أهل السنة والجماعة أصول السلف الصالح، والتعاون في إقامة أعمال مشتركة بشكل جماعي.

رَأْيُ الْـجَمَاعَةِ لَا تَشْقَى الْبِلَادُ بِـهِ رُغْـمَ الْـخِلَافِ وَرَأْيُ الْفَـرْدِ يُشْـقِيهَا

٨- أن يتقوا الله في الدعوة إلى الله، فلا يخلطوا بين القوة والعنف، والرفق والضعف، والنصيحة والتشهير، والغيرة على المحارم والتهور غير المنضبط، وقمع الفتنة والجبن والخوف، والمداراة

والمداهنة، وليسموا الأشياء بأسمائها؛ فإن الكلمة أمانة.

❁ **وقوله ﷺ: «وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا»:**

١ – فإن أسأتَ -أيها الأخ الكريم- إلى أحد إخوانك فبادر بالحسنة، وهي اعتذارك، ولا تأخُذْكَ العزةُ بالإثم.

٢ – إذا أسأتَ، بأن أدخلتَ نفسك فيما لا يعنيك من الشئون المتعلقة بالدعوة أو العلم، أو أسأتَ في نقل فتوى، أو تقرير حكم بَانَ لك خطؤه، فلتبادِرْ بالحسنة، وهي تصحيح النقل، أو تصحيح الفتوى، ولا تستَحِ من ذلك.

٣ – إذا أسأت بأن سَكَتَّ عن الحق في موضع يحتاجك فيه، فانصره في موضع آخر، ولا تستمْرِئِ السكوتَ عن الحق؛ فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس.

٤ – إذا أسأت في دعوة بعض الأفراد إلى الله، فلتبادر بالحسنة، وهي استفادتك من أخطائك واجتنابها في المستقبل، ولا تتغاضَ عن ذلك، أو تبرره.

❁ **قوله ﷺ: «وخَالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ»:**

وقوله ﷺ: «**إنما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ**»[1]:

---

(١) رواه أحمد (٨٩٥٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣) والبيهقي في «الكبرى» (١٠/١٩١-١٩٢)، وفي «الشعب» (٧٩٧٧، ٧٩٧٨)، والبزار في «مسنده» (١٥/٣٦٤ رقم

يُقيم منهجًا للأخلاق في حسِّ الداعية المسلم، هذا المنهج مكوَّنٌ من أمورٍ يجب أن يتركها الداعية تخلُّقًا بأحسن الأخلاق، وأمورٍ يجب أن يأتِيَهَا تخلُّقًا بأحسن الأخلاق أيضًا.

وهذا تفصيلها:

أولاً: أمور يجب اتقاؤها في التعامل مع الناس عامة، والمدعوين خاصة:

١ـ التحلّي بالحكمةِ حالَ النصحِ:

أ – من الحكمة أن تعلم أن الناس فُطِروا على كراهة الـمَلام، وكذا من تدعوه إلى الله يكره أن يُلَام، أو أن يَلُومَ هو نفسَهُ، ويكره أن يقومَ مقامَ المخطئ، أو يقف موقف المدافع عن نفسه، لا سيما إذا حصل هذا اللوم أمام غيره، وقد تغلبه نفسُه فيأبى الرجوعَ إلى الحق.

قال الشافعي:

تَعَمَّدْنِي بِنُصْحِكَ فِي انْفِرَادِي ... وَجَنِّبْنِي النَّصِيْحَةَ فِي الْجَمَاعَهْ

فَإِنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ ... مِنَ التَّوْبِيْخِ لَا أَرْضَى اسْتِمَاعَهْ

فَإِنْ خَالَفْتَنِي وَعَصَيْتَ أَمْرِي ... فَلَا تَجْزَعْ إِذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَهْ

=

٨٩٤٩)، وتمام في «فوائده» (١٢٢/١ رقم ٢٧٦)، وقال ابن عبد البر في «التمهيد» (٣٣٣/٢٤-٣٣٤): «هو حديث صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره».

ب – وعليك أيها الداعية أن تعلم أن من تدعوه ليس دائمًا صاحب منطق واتباع للحق، بل قد تكون نفسُه ممتلئة هوًى أحيانًا وكبرياء أحيانًا أخرى، وقد يمنعه كبرياؤه أن يُظْهِرَ امتثاله للأمر فورًا وحالًا حفاظًا على كبريائه، فعليكَ إذا نصحتَ أن تتغافل شيئًا ما لتترك له فرصةً للانسحابِ من موقفه أو عمله القديم فإنَّ ذلك سيكون عونًا له على الخير.

وإذا كنت تظن أنه ليس صاحب منطق وعقل راجح فعليك أن تكون متأكدًا من أنه صاحب أحاسيس ومشاعر، وأنه قد يتأثر بالنظرة فضلًا عن الكلمة، فالنقد المباشر وتوجيه الأوامر قد يسبب آثارًا سلبية ونتائج غير مأمونة، فلا تلجأ إلى هذا حتى تتأكد من قبول صاحبك لهذا الأسلوب منك، وأسلوب الحض والحث على الخيرٍ يؤثر غالبًا أكثر من أسلوب الأمر المباشر، وأسلوب التعريض يؤثر غالبًا أكثر من أسلوب المواجهة.

وتأمل قوله ﷺ إذا بلغه عن رجل بعينه شيء فكان يقول: «ما بال أقوام يقولون أو يفعلون كذا وكذا»[1]، فكن ذكيًا وانقد

(١) انظر على سبيل المثال: «صحيح البخاري» (٤٥٦، ٧٥٠، ٢٧٣٥، ٦١٠١، ٧٣٠١)، ومسلم (١٤٠١، ١٥٠٤، ١٦٩٤، ٢٣٥٦).

الأفعال دون الرجال.

جـ- ومن الحكمة في النصح: أن تعلم أن الشرع جعل لك سعةً في اختيار الأسلوب الذي يجعل الخطاب أَدْعَى لقبول المدعوِّ، وحتى توجه خطابًا إلى غيرك يحمله على ترك القبيح وفعل الجميل، فإن عليك أن تعرف أحواله وصفاته، حتى تواجه كل حالةٍ بما يصلحها، وتعطي كلَّ إنسانٍ ما ينفعه.

د - ومن الحكمة في النصيحة لصاحبك: ألَّا تدعُوَهُ لأجل نفع شخصي، أو حزبي، وإنما تدعوه لمبدأ سامٍ، وليس لك من هذا سوى إيصال الخير إليه، وليس لذلك من سبب سوى محبتك له، وشفقتك عليه، ولتتمثَّلْ قول النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه -قبل أمره له-: «**يا معاذ واللهِ إني لأحبك، فلا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللّهُمَّ أعنِّي على ذِكْرِكَ وشكرِكَ وحسنِ عبادتك**»[1].

فدافعُ الحبِّ الممزوج بالخوف هو ما يدفعك إلى نصيحة صاحبك، قال تعالى -على لسان أنبيائه ورسله كافة قولهم-: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ

(١) أخرجه أحمد (٢٢١١٩) وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣) وفي «عمل اليوم والليلة» (١٠٩)، وابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠، ٢٠٢١)، والحاكم (٢٧٣/١)، (٢٧٣/٣-٢٧٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٤١/١)، (١٣٠/٥)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:٥٩].

وهذا مؤمنُ آلِ يس يقول ما يقول من النصيحة لقومه، فيقتلونه جزاءً على نصحه، فيقول بعد موته: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٢٦] شفقةً منه عليهم بعد موته.

فمَثَلُ الناسِ مثل الفراش يقتحم في النار، وأنت أيها الداعية آخذٌ بحجزهم تدفعهم بالراح منك والصدر؛ حتى لا يقعوا في النار.

هـ- وإذا أردتَ أن تأمرَ بأمرٍ فاذكر فضلَهُ قبل أن تأمر به، فإن النفس تتشوق للمحبوب، واقْتَدِ برسول الله ﷺ حين قال تشويقًا للجهادِ والقتالِ، فعن أنس أن رسول الله ﷺ أخذ سيفًا يوم أحد فقال: «**من يأخذ مني هذا؟**»[١]، وقال: «**لأعطين الرايةَ غدًا رجلًا يحبه الله ورسوله**»[٢].

٢ – إهمال الإنصاف:

فعليك دائمًا أيها الداعية المربِّي بالإنصاف، وأن تعرف الفضل لأهله، وتأمَّلْ كيف عالج النبي ﷺ موقفَ الأنصار في أعقاب حنين:

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ نَاسًا مِنْ الْأَنْصَارِ قَالُوا لِرَسُولِ الله ﷺ

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٧٥، ٣٧٠٢)، ومسلم (٢٤٠٧).

-حِينَ أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ مَا أَفَاءَ فَطَفِقَ يُعْطِي رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ الْمِائَةَ مِنْ الْإِبِلِ، فَقَالُوا-: يَغْفِرُ اللهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَدَعُنَا، وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، قَالَ أَنَسٌ: فَحُدِّثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَقَالَتِهِمْ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْأَنْصَارِ فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، وَلَمْ يَدْعُ مَعَهُمْ أَحَدًا غَيْرَهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا كَانَ حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ؟**» قَالَ لَهُ فُقَهَاؤُهُمْ: أَمَّا ذَوُو آرَائِنَا يَا رَسُولَ اللهِ فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، وَأَمَّا أُنَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ، فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُ الْأَنْصَارَ، وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي أُعْطِي رِجَالًا حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْأَمْوَالِ، وَتَرْجِعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَوَاللهِ مَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ**» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ رَضِينَا، فَقَالَ لَهُمْ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً شَدِيدَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْا اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ عَلَى الْحَوْضِ**». قَالَ أَنَسٌ: فَلَمْ نَصْبِرْ[1].

وأخرج البخاري في «صحيحه» من حديث أنس بن مالك

(١) أخرجه البخاري (٣١٤٧)، ومسلم (١٠٥٩).

قوله ﷺ: «**أُوصيكم بالأنصار؛ فإنهم كَرِشِي وعيبتي**[١] **فقد قضوا الذي عليهم**[٢] **وبقي الذي لهم، فاقْبَلُوا من محسِنِهم وتجاوزوا عن مسيئِهِم**»[٣].

وقد قيل:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمْهُ ... عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ

وقيل:

وَالْمَرْءُ يَعْجَبُ مِنْ صَغِيْرَةِ غَيْرِهِ ... أَيُّ امْرِئٍ إِلَّا وَفِيْهِ مَقَالُ

لَسْنَا نَرَى مَنْ لَيْسَ فِيْهِ غُمَيْزَةٌ ... أَيُّ الرِّجَالِ الْقَائِلُ الْفَعَّالُ

وكان رجل جُلِدَ في الخمر مرارًا، فجيء به ذات يوم، فقال رجلٌ من القوم: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ، ما أكثر ما يُؤْتَى به؟ فقال ﷺ: «**لَا تَلعَنُوهُ، فواللهِ مَا علمتُ إنَّه يحبُّ اللهَ ورسولَهُ**»[٤].

فلا يزال فيه من الصفات التي يُحَبُّ لها، ولا يُبْغَضُ بالكلية، هذا في حق عامة المسلمين، وهو في حق علمائهم وأصحاب الفضل أجدرُ وأولى.

---

(١) يعني: بطانتي وخاصَّتي.

(٢) يقصد ﷺ: أنهم وفوا بما تعهدوا به في بيعة العقبة.

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٩٩)، ومسلم (٢٥١٠).

(٤) أخرجه البخاري (٦٧٨٠).

قال سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ: ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلَّا فيه عيبٌ، ولكن من الناس مَنْ لا ينبغي أن تُذْكَرَ عيوبُهُ.

وقال الذهبي: ثم إن الكبير من أئمة العلم إذا كَثُرَ صوابُهُ، وعُلِمَ تحرِّيه للحق، واتَّسَعَ علمُهُ، وظهر ذكاؤه وعُرِفَ صلاحُهُ وورعُهُ واتباعُهُ، يُغْفَرُ له زلَلُـهُ، ولا نضلله ونطرحه، وننسى محاسنه، نعم، ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك[١].

وينبغي أن يعلم الداعية أننا في زمنٍ كَثُرَ دخنه، وقل صفاؤه، وتَطَلُّبُ الكمال مستحيلٌ، أو يكاد، والمطلوب تكثيرُ الحسنات، وتقليلُ السيئات قَدْرَ الإمكانِ.

ثم إذا أخطأ من تدعوه فأقرَّ بذلك الخطأ، سواء كان هذا الخطأ في حقِّكَ، أو حقِّ غيرك، أو حقِّ الله تعالى، فلا مجال بعد ذلك لذِكْرِ الأخطاءِ، والأفضلُ نسيانُها، وعدمُ تذكيره بها.

فلنتذكَرْ قولَهُ ﷺ: «**ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة**»[٢].

وتأمَّلْ قولَ أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تُكَلِّفوا الناسَ ما لم يُكَلَّفوا، ولا تُحَاسبوا الناس دونَ ربِّهم، ابنَ آدمَ، عليك نَفْسَكَ؛ فإنَّه مَن تتبَّع ما يرى في الناس يَطُلْ حزنُهُ، ولا يُشْفُ غيظُهُ»[٣].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/٢٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠، ٢٦٩٩).

(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١/٢١١).

ولا تترك الستر عليه إلا إذا تعدى الضرَّر، وأصرَّ على الخطأ رغم الستر والنصح.

٣ – معاملة الناس باستعلاء:

عليك -أيها الداعية المربي- أن تَعُدَّ نفسَكَ كواحدٍ من الناس، فلا ترى لنفسك فضلًا، ولا ترى لك عليهم حقًّا، مهما بلغ شأنك في هذه الحياة، وعامِلِ الناسَ بما تحب أن يعاملوك به، فلا تتميزْ عنهم بشيء، ولا تقبلْ أن يميزوك هم بشيء؛ فإن هذا من كمال الخُلُقِ الحَسَنِ.

وكثيرٌ من الدعاة والمتكلمين والمتصدِّرين إذا أدمنوا الجلوس في مقاعد التعليم، وواصلوا الرقي في درج المنابر، وأداموا الوقوف خلف مكبرات الصوت يَرَوْنَ لأنفسهم ما لم يكن يراه أبو بكر وعمر لنفسه، بل ما لم يكن يراه الذي قال عن نفسه ﷺ: «**لا تُطْرُوني كما أَطْرَتِ النصارى ابنَ مريمَ، فإنما أنا عبد، فقولوا عبدُ اللهِ ورسولُهُ**»[1].

فلا تأخذ بعلمك جاهًا، ولا بدعوتك أمرًا ليس لك، ولا تشتَرِ بما آتاك اللهُ من الهدى عَرَضًا من عَرَضِ الدنيا الزائلِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

قال هارونُ بنُ عبدِ اللهِ الحمَّالُ: «جاءني أحمد بن حنبل بالليل فدقَّ عليَّ البابَ، فقلتُ: مَنْ هذا؟ فقال: أنا أحمد، فبادرتُ إليه فَمَسَّاني ومسَّيْتُهُ.

فقلت: حاجةُ أبي عبد الله (أي: ما حاجتك)؟

قال: شغلتَ اليوم قلبي.

فقال: جُزْتُ عليك اليوم وأنت قاعد تحدِّث الناس في الفيء[1] والناسُ في الشمس بأيديهم الأقلام والدفاتر، لا تفعلْ مرةً أخرى، إذا قعدتَ فاقعدْ مع الناس».

فتأمَّلْ كيف عاونه أحمد بن حنبل على ذلك بقوله: شغلتَ اليوم قلبي، ولم يَقُلْ له: أسأتَ إلى الناس، وكيف عَلَّمَهُ ألَّا يتميزَ عليهم في المجلس، وأن يكون كأحدِهِم.

ولأجل هذا الخلق الكريم وغيره سُمِّيَ الإمامُ أحمدُ إمامًا للعامة، ومعلمًا للخير.

وتأمَّلْ ما جرى من حاطب بن أبي بلتعة حين أرسل خطابًا إلى أهل مكة فلما جيء به إلى النبي ﷺ قال عمر: دعني يا رسول الله فلأضربْ عنقَ هذا المنافق، فأعرضَ النبيُّ ﷺ عن هذا الكلام، وهذا

---

(١) يعني: الظل.

الأسلوب، وقال لحاطب: «**ما حملك على ما صنعتَ؟**»[١].

فتثبت من العمل أولًا، ثم بحث عن الدوافع ثانيًا، ثم نظر في الإيجابيات التي تقابل هذه السلبيات ثالثًا، ثم كان الحكم أخيرًا منه ﷺ بقوله: «**وما يدريك يا عمر! لعلَّ اللهَ قد اطَّلَعَ إلى أهل بدرٍ، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم**».

فلا تتسرعْ في اللوم على الخطأ، لا سيما إذا كان لصاحبه وجهة نظر، ولا تَعْجَلْ ولا تُكْثِرْ في اللوم، لا سيما إذا كان الخطأ مشتركًا بينك وبين صاحبك، كمن يلوم أخًا له: لماذا لا تأتينا وتزورنا؟ ونحو ذلك، وينسى أنه هو أيضًا لم يفعلْ، وكما أن له حقوقًا، فإن عليه مثلَهَا نحو إخوانه.

وربَّما جالس الداعيةُ أناسًا لا يحبهم، ولا يرتاحُ إليهم لتحقيقِ مصلحةٍ، أو دفعِ مفسدةٍ، وربَّما اشتاقَ قلبُهُ إلى من يحب، فلا يجتمع بهم إلَّا كل سنةٍ مرة.

قال القائل:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى ... عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

٤ – التمادي في الخطأ مع وضوحه:

أيها الداعي الحبيب:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٨٣، ٦٢٥٩، ٦٩٣٩)، ومسلم (٢٤٩٤).

إذا كنت مخطئًا فسلِّمْ بخطئك ولا تتعصبْ، وهذا يحتاج منك إلى شجاعة ومجاهِدة، فعوِّدِ النفسَ عليه، وكلما زاد علمُكَ وفضلُكَ وحَسُنَ خلقُكَ زاد تحريِّكَ للصواب، ورجوعُكَ عن الخطأ سريعًا، فإذا أخطأتَ فلا تُطِلِ الذيلَ في الحديثِ بغيةَ التبريرِ، فهذا مما يحطُّ من قدرك، ويُفْقِدُ الناسَ الثقةَ فيك.

فكثير من العلماء من إذا استبان له خطؤه رجع في الحال عنه، ويقدِّمُ فيقول: كل قول قلتُه خلاف ما صح عن رسول الله ﷺ فإنا راجع عنه في حياتي وبعد مماتي.

وأنت -أيها الداعية الموفق- عليك أن توطِّنَ نفسك على نفس المبدأ، وأن تُصَدِّرَ حديثَكَ إلى من تدعوه، أو تناقشه بقولك: قد أكونُ مخطئًا؛ فإن كنتُ مخطئًا، فأرجو أن تصحِّحَ لي، ونحو ذلك.

وابتعِدْ في حديثك عن عبارات العِنَادِ والتحدِّي، كقولكَ: سأثبتُ لك، أو: إنَّ كلامَكَ خطأٌ من أساسه، ونحو ذلك مما يثير حفيظةَ مستمِعِكَ.

٥ – نسبة الفضل إلى نفسك أو توجُّهك، ونسبة الفشل لغيرك:

الناس يكرهون دائمًا من ينسب الفضل لنفسه، وإذا حَدَثَ فشلٌ أو خطأ ألقى بالتَّبِعَةِ على الآخرين، وإذا حدث نجاحٌ نَسَبَهُ إلى

نفسِه، فكل الناس يبغضون ذلك الإنسان، ويكون منبوذًا[١].

وبعض الذين لم يتحققوا بالإخلاص يغضبون إذا حمل الناس أفكارهم ونسبوها لأنفسهم دون أولئك؛ لأنهم يريدون أن يقولوا للناس: إن الفضل لي، أما الداعية الذكي المخلص فله شأنٌ آخر؛ فسعادةُ المخلصين من الدعاة والمفكرين أن يتقاسم الناسُ أفكارَهُمْ وعقائِدَهم، وأن يحملوا دعوتَهُمْ ويؤمنوا بها إلى حدِّ أن ينسبوها إلى أنفسهم، لا إلى أصحابها الأولين.

وهنا ينبغي للداعية الذكي أن يتجنَّبَ في حديثه استعمالَ ضميرِ المتكلمِ؛ لأنه أول فساد النية، وهو يعطي السامعَ انطباعًا منفرًا من هذا الذي يتعالم عليه، ويُظْهِرُ أفضلية عليه.

وينبغي أن تعلمَ أن المشاورات ذات قيمة عظيمة في تبنِّي الرجال للقضايا، سواء أكانت علمية أو عملية، وتأمَّلْ مشاورةَ النبي ﷺ أصحابه في أُسارى بدر، وفي الخروج للمشركين في أحد، وفي مكان النزول في بدر، ونحو ذلك، وكيف تحمَّلَ المسلمون القضية؛ لأنها صارت قضيتهم، وهم الذين قطعوا فيها.

٦- الخلط بين الفكرة وصاحبها، ورفع الصوت، والغضب خلال النقاش:

قد تستحق الفكرة المناقشة والنقد، ولا يستحق صاحبها

(١) «فن التعامل مع الناس» د. عبد الله الخاطر (ص٣٦).

ذلك، فلا تكن طعَّانًا ولا فاحشًا بذيئًا، فهذا لم يكن من وصف المؤمن.

وعليه، فاعْرِفْ لذي الفضلِ فضلَهُ ولأخيك حقَّهُ، ولو أخطأتْ سهامُهُ كبدَ الصوابِ فيما سمعتَ منه، أو نُقِلَ لك عنه.

إِذَا رُمْتَ أَنْ تَحْيَا سَلِيْمًا مِنَ الْأَذَى وَحَظُّكَ مَوْفُورٌ وَعِرْضُكَ صَـيِّنُ

لِسَانَكَ لَا تَذْكُرْ بِهِ عَـوْرَةَ امْـرِئٍ فَكُلُّكَ عَوْرَاتٌ وَلِلنَّـاسِ أَلْسُـنُ

وأما رفع الصوت فوق الحاجة فإنه رعونة، وغالبًا ما يكون رفعُ الصوت في نقاشٍ محاولةً لتقوية حجة ضعيفة سترًا لعجز بدَتْ أماراته.

وكُنْ كالبحر في أعماقه دُرَرٌ، ولا تكن كالبحر على شاطئه ضجيج الموج وضحالة الماء.

والصوت المعتدل ينفذ إلى الأعماق ويحفظ الوقار والهيبة.

وأما الغضب حال النقاش؛ لأن المناقش لم يقتنع برأيك فهو رعونة أخرى، ما دامت القضيةُ محلُّ المناقشةِ من قبيل الرأي الاجتهادي المحتمل للخطأ.

فقد اختلفت وجهات نظر الصحابة في أمورٍ عديدة، فما أنكر بعضهم على بعض، وما غضب كل منهم من الآخر.

فمثلًا اختلفت وجهات نظر الفاروق عمر وابن مسعود في

نحو مائة مسألة، كما ذكر ذلك ابنُ القيم، فما حمل عمرُ على ابن مسعود، بل كان وَالِيَهُ.

فلماذا الغضبُ والناسُ لم تجتمع، ولن تجتمع على المسائل الاجتهادية، ولم يحدث عبر التاريخ ذلك الإجماع إلا قليلًا!

ولقد رفض مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أن يحمل المنصورُ الناسَ على موطئه؛ لأن الناس قد اختلفوا وتشعبت بهم الآراءُ والبلادُ.

واعلم أنه ليس من الحكمة أن تجيبَ من لا يسألُكَ، أو تسألَ من لا يجيبك، أو تحدِّثَ من لا يُنصتُ لك.

ثانيًا: أمور ينبغي الأخذ بها، ومراعاتها في التعامل مع الناس:

١- إظهار الاهتمام بهم، وحسن الاستماع لحديثهم، والبِشْرُ عند لقائهم:

عليك أيها الداعية أن تُشْعِرَ مَنْ حولك من الناس، أو من تقوم بدعوته إلى الله تعالى بأنه موضعُ اهتمامِكَ، في أفكاره ومشاغله ومشاكله، فإذا تحدَّثَ عن ذلك أنصتَّ إلى حديثه وأقبلتَ بوجهك عليه، مظهرًا البِشْرَ والسرورَ بكلامه، وعليك أن تُحْسِنَ الإنصاتَ له، فكما أنك متحدِّثٌ بارعٌ فكن أيضًا مستمعًا بارعًا.

وكثيرٌ من الدعاة يخفقون في دعوتهم؛ لأنهم لا يتمكنون من

إحداث أثرٍ طيب في نفوس من يدعونهم لأول مرة؛ وذلك لأنهم لا يحسنون الاستماع ولا يصغون باهتمام.

ولقد عَلَّمَنَا النبيُّ ﷺ موقفًا من مواقف الدعوة الفردية مع أحد المشركين المعاندين وهو عتبة بن ربيعة، حين جاء يُحاور النبيَّ ﷺ ويعرض عليه العروضَ، فما كان منه ﷺ إلَّا أنْ أنصتَ له حتى فرغ من كلامه، فقال: «**أَفَرَغْتَ يا أبا الوليدِ؟**»[1]، (تأمَّلْ تكنيَتَهُ له) قال: نعم، فقرأ عليه صدر سورة فُصِّلَتْ إلى أن بلغ قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣] فقال عتبة: حسبك، وفي رواية قال: ناشدتُكَ اللهَ والرَّحِمَ، ووضع يده على فم النبي ﷺ، وانقلب إلى قومه بوجهٍ غير الوجه الذي ذهب به، وقال لهم قولًا عظيمًا حتى إنه لكاد أن يُسلم، المهم لقد تغير موقفه مما سمع ورأى من النبي ﷺ حتى كان من كلامه: يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما يقول فاعتزلوه، فوالله ليكون لقوله الذي سمعت نبأ عظيم، فإن نصبه العرب كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وعزُّهُ عِزُّكُمْ، وكنتم أسعدَ الناس به، قالوا: سَحَرَكَ يا أبا الوليد، قال: هذا رأيي،

(١) انظر: «الاعتقاد» للبيهقي (ص٢٦٧)، و«تفسير ابن كثير» (١٦٢/٧-١٦٣).

فاصنعوا ما بدا لكم [١].

وقال ابن المقفع: تَعَلَّمْ حُسْنَ الاستماعِ، كما تتعلمُ حسن الكلام، ومن حُسن الاستماع: إمهالُ المتكلم حتى ينقضِيَ حديثُهُ، وقلةُ التلفت إلى الجواب، والإقبالُ بالوجه والنظرات إلى المتكلِّم، والوعي لما يقول.

ومن صور الاهتمام بالناس والإخوان: السعيُ في قضاء حاجتهم، والتودُّدُ إليهم بالهدية، ونحوها، كما قال ﷺ: «**تَهَادُوا تَحَابُوا**»[٢].

والناس يرتبطون بمن يُحْسن إليهم دومًا.

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمْ ... فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانَ إِحْسَانُ

والناس يرتبطون بمن يعرف اهتماماتهم، ويعيش مشاكلهم، لا بمن يكتفي معهم بمجرد اللقاء بالوعظ حينًا، والأوامر حينًا آخر، ويُكْثِرُ عليهم من قوله: (افعلوا كذا... وانتهوا عن كذا).

والناس يرتبطون بمن يعرفون البِشْرَ منه عند اللقاء،

---

(١) رواه ابن إسحاق في «السيرة» (١٨٧/٤ رقم ٢٦٨) مطوَّلًا.

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٤)، وأبو يعلى في «المسند» (٩/١١) والبيهقي في «الشعب» (٨٥٦٨) من حديث أبي هريرة، وقال الحافظ في «التلخيص» (١٦٣/٣): وإسناده حسن، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٠٤).

والائتناس عند الزيارة، والابتسامة على كلِّ حالٍ.

فإن الابتسامة تعمل عمل السحر في النفوس، وطلاقة الوجه تفتح مغاليق القلوب، وتنفذ إلى الأعماق.

فلتبتسِمْ وكَلِّفْ نفسَكَ أن تبتسِمَ؛ فإن تبسُّمك في وجه أخيك صدقةٌ.

ومن حُسْن الأدب أن تشجع جليسَكَ وأخاكَ على أن يتحدَّثَ عن نفسه؛ فإن الناس يحبون من يستمع إلى حديثهم أكثر ممن يحدثهم هو عن نفسه.

والنبيُّ ﷺ القدوةُ في ذلك، فقد كان إذا حدَّثَهُ أحدٌ التفتَ إليه بوجهِهِ وحسِّهِ، وأصغى إليه تمامَ الإصغاءِ، ولا يقطعُ الحديثَ حتى يكونَ المتكلم هو الذي يقطع كلامه[1].

وَتَرَاهُ يُصْغِي لِلْحَدِيْثِ بِسَمْعِهِ وَبِقَلْبِهِ وَلَعَلَّهُ أَدْرَى بِهِ

وتأمَّلْ قولَ عطاءِ بنِ أبي رباح: «إنه ليحدثني الرجل بالحديث سمعته قبل أن تلدَهُ أمُّهُ فيحملني حسنُ الأدبِ على استماعِهِ والإنصاتِ إليه»[2].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧٠/٤).

(٢) انظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤٠١/٤٠)، و«تهذيب الكمال» للمزي (٨٣/٢٠)، و«السير» (٨٦/٥) و«الميزان» (٩٠/٥) للذهبي.

وقد ورد نحو هذا القول عن الإمام سفيان الثوري أيضًا[١].

ونحن نتعلم منه ﷺ ليس مجرد حسن الاستماع إلى حديث الآخرين، بل أيضًا إثارة المتحدِّث لكي يبسط الحديث، كما كان يصنع النبي ﷺ مع أصحابه.

فهذا جابر بن عبد الله يسأله عن أحواله، فيخبره بأنه تزوج فيقول له: «**بكرًا، أم ثيبًا؟**»، فيقول جابر: بل ثيبًا، فيقول له: «**هَلَّا بكرًا تلاعبها وتلاعبك**»[٢] فيجيب جابر عن سبب زواجه من الثيب بأن له إخوةً صغارًا من أبيه، يريد أن تقوم زوجته الثيب عليهم، وعلى رعايتهم.

وهكذا يجب أن يكون الداعية فطنةً ورعايةً لمشاعر الآخرين، فالأحداث التي تمرُّ بالإنسان من زواج، أو طلاق، أو ولادة، أو وفاة هي أحداث مهمة جدًّا لديه، ويحسُنُ بك -أيها الداعية- أن تُبدي اهتمامًا بها بتهنئةٍ، أو بنصيحة، أو عزاء، أو نحو ذلك، مما يُقوِّي أواصر المحبة، وروابط الألفة، ويُشعر بالتعاطف والقرب.

٢ – البعد عن الجدل:

الجدال منه ما هو مذموم، قال عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يهدم

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٦/٥).
(٢) أخرجه البخاري (٥٢٤٧)، ومسلم (٧١٥).

الدينَ: زَلَّةُ العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحُكْم الأئمة المُضلِّين»[١].

وقال ميمون بن مهران: «إياك والخصومة والجدال في الدين، لا تُجَادلنَّ عالمًا، ولا جاهلًا، أمَّا العالم يَخْزنُ عنكَ عِلْمَهُ، ولا يُبالي ما صنعتَ، وأمَّا الجاهلُ فإنَّه يُخَشِّنُ بصدْرِكَ ولا يُطيعك»[٢].

ومن الجدال ما هو محمود، قال الله عنه: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦].

فإذا أُرِيدَ بالجدال الوصول إلى الحق دون مغالطة، أو اتباع هوى، أو تعصُّبٍ فهو جدالٌ محمود.

وإذا كان المراد من الجدال إظهار التفوُّق وحُسْن المحاضرة، وقوة الحجة ونحوها، أو كان على سبيل المغالطة أو المكابرة والعناد فهو محرم.

والجدال المحمود ينبغي أن يكون بالتي هي أحسن من الأساليب والوسائل والأحوال والكلمات والبراهين والأدلة الموصله إلى المطلوب.

---

(١) أخرجه الدارمي في «سننه» (٢٢٠)، وابن بطة في «الإبانة» (٦٤١، ٦٤٣) والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٦٠٧).

(٢) أخرجه الدارمي في «سننه» (٣١٠) وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨٢/٤).

فإذا لاحظتَ أن الحديث اتجه للجدال فلتنسحب منه بلطف، ولتعلمْ أن خير السُّبل لكسب النقاش أن تتجنَّب الجدال.

وإذا لاحظت أن محاوِرَكَ سيجنح إلى الجدال فعاونه على أن يبتعد عنه، فلا تحرجه أمام الآخرين، ولا تهدده بأنكَ ستبيِّنُ له خطأه، أو توضحُ له أنك أعلم منه.

وعليك أن تستخرج من نفسه الحق بسهولة؛ متذرعًا في ذلك بالرفق واللين في الكلام، ودعْهُ يتبنى الفكرة ويدير الحديث، وصَدِّرْ كلامَكَ بطلب النصيحة منه في هذه القضية إذا كنت مخطئًا، واثْنِ على ما في كلامه من الصواب والحق.

٣ – إظهار تقديرهم واحترامهم:

الإنسان بطبعه يحب من يحترمه ويقدره، والداعية الموفق يُنزل الناس منازلهم؛ امتثالًا لقوله وفعله ﷺ.

فمن قوله: ما قاله ﷺ للأنصار حين دنا سعد بن معاذ من المسجد: «**قوموا إلى سيدكم أو خيركم**»[1].

ومثل ذلك ثناؤه على ما قدَّمَ الأنصار حين وجدوا عليه في

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٣، ٤١٢١)، ومسلم (١٧٦٨).

أنفسهم حين أعطى غيرهم وتركهم[1].

ومن فعله ﷺ: تقديره لكبار القوم من المؤلفة قلوبهم، وإعطاؤه لهم عطايا عظيمة كما فعل بالأقرع بن حابس التميمي رضي الله عنه.

والناس جميعًا يحبون أن يشعروا باحترام الآخرين لهم، وحين يتحقق هذا الشعور يكون بمثابة الدافع والمحرك للعمل والعطاء بلا حدود؛ وذلك لوجود الطمأنينة بأنه لا إهمال ولا احتقار ولا تغافل عن الأقدار والأدوار.

ولكي يتحقق لديك القدر المطلوب من احترام الآخرين على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم الاجتماعية والثقافية والعلمية، عليك أن تتأمل جوانب الإحسان والإيجابية في الآخرين فكلما أدركت الصفات الحسنة في الناس زاد احترامك لهم.

والاحترام ينشأ أيضًا من معرفتك بأن الأفكار تتباين والرغبات تتنوَّع بتنوُّع البيئات والثقافات والخبرات.

وإذا وضعتَ نفسَكَ مكانَ الآخرين ونظرتَ إلى الأمور من زاويتهم كان ذلك أدعى لتقدير آرائهم.

والمقصود بالاحترام ليس الإطراءَ، أو التملُّقَ، أو المبالغةَ في المدح، وإنما المقصود هو التقدير الذي يجعلك مهذبًا أولًا، ثم ما

---

(١) وقد مضى الحديث قريبًا في ذِكْرِ موقف الأنصار عقب وقعة حُنَيْن.

يكون في محلِّه من غير إفراطٍ، أو تفريط.

وملامح ذلك ما يلي:

١ – إبداء القول والثناء على ما عند الآخرين من أفكار، أو أساليب، أو ممارسات جيدة، والاقتباس من ذلك الجيد.

٢ – إظهار التعاطف مع الرغبات والتطلعات عند الآخرين ما دامت رغباتٍ مشروعةً.

٣ – مناداة الآخرين (صغارًا، أو كبارًا) بأحبِّ الأسماء إليهم، وقد كَنَّى رسولُ الله كثيرًا من الكبار والصغار.

ومجرد مناداة الإخوان بعبارة: (يا أخ فلان) خير من أن تناديه باسمه، وأن تناديه بكنيته التي يحبها خير من ذلك كله، وهكذا الألقاب المتعارف عليها.

٤– ومن ذلك الاحترام: أن تحفظ أسماءهم ولا تنساها، وإن نسيتَهَا فلا تتحرج أن تسأل عنها بأسلوب التعارف المهذب، فإن السؤال بحدِّ ذاته يدل على الاهتمام.

٥–ومن التقدير المطلوب: ألَّا تُسَفِّهَ للآخرين رأيًا، ولا تقطع لهم حديثًا.

٦– التشجيع على استغلال الإمكانات، وتفجير الطاقات، والثناء على المحسن.

والداعية الذكي يستبدل النقد اللَّاذِعَ بالتشجيع النافع، ويزرع روح التفاؤل والتيسير والتبشير، بدلًا من أضدادها، ويمتلك رغبة

في رفع الروح المعنوية عند الآخرين، والمعاونة في إنجاح الأعمال.

فتنمية الإيجابية عند المدعوين أَمْرٌ مطلوب، والقدرة على تخفيف حِدَّة السلبيات في الأعمال، ومعالجة ذلك من حِكَمِ الداعية.

ولا يجوز أن يمنع الداعية إخوانه من الممارسة، بحجة أنهم يخطئون، أو لا يصلون إلى الكمال!.

فلا بد من استعمال عبارات، مثل: «أتصور أنك ستحسن هذا العمل، جَرِّبْ، وأعتقد أنك من الأكفاء لهذا الأمر»، فبذا تتفجر الطاقات، وتتحفَّزُ النفوس للنجاح.

وإذا حصل المأمول، وتحقَّق المقصود، فهنا دور الشكر والثناء.

ولا يجوز أن يُترك الثناء والشكر للمحسن بحجة الخوف من غرور قد يعتريه فعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**من لم يشكرِ الناسَ لم يشكرِ اللهَ**»[1].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه مرفوعًا: «**من صُنِعَ إليه معروفٌ فقال لفاعله: جزاك اللهُ خيرًا؛ فقد أَبْلَغَ في الثناء**»[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٧٥٠٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٨)، وأبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤، ١٩٥٥)، وقال الترمذي في الموضع الثاني: حديث حسن، وقال في الموضع الأول: حديث صحيح، وابن حبان (٣٤٠٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٤١)، وفي الباب عن أبي سعيد مرفوعًا أخرجه أحمد (١١٢٨٠) والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٣٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٠٠٨)، وابن حبان (٣٤١٣)، وقال

ففاعلُ الخير لا بد أن يُشْكَرَ، وإنما الذي لا يجوز: أن يُثْنَى على الإنسان بما ليس فيه، والمدح الذي يغلب على الظن أنه مدعاةٌ للغرور.

فلا يُغْلَقُ بابُ الثناء والدعاء لمجرد الاحتمال، على أن الشكر ليس فقط باللسان، بل يكون بالتقدير والعرفان، ونحو ذلك في المواقف المتعددة.

وقد كان النبي ﷺ يدعو للمزكِّي حين يدفع زكاته.

وقد كان يقول في الثناء على أصحابه كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان بن عفان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبي بن كعب، ولكل أمة أمينٌ، وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**»[(١)].

وقال ﷺ مادحًا الأنصار: «**لولا الهجرة لكنتُ امرءًا من الأنصار**»[(٢)]، «**اللَّهُمَّ ارحمِ الأنصارَ**»[(٣)].

=

الترمذي: حديث حسن جيد غريب، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣٦٨).

(١) أخرجه أحمد (١٢٩٠٤)، والترمذي (٣٧٩٠) بطوله، وقال: حديث غريب (٣٧٩١)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (١٥٤، ١٥٥) وابن حبان (٧١٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٧٩، ٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

(٣) أخرجه أحمد (١١٧٣٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١٧٨/٥).

وقال لأشجع عبد القيس: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة**»[١].

٥ – تصحيح الأخطاء، والتغلُّب على السلبيات بأسلوب رقيق:

الداعية الموفق هو من تسري دماءُ التوجيه في داخله، ولكن من غير تكلُّفٍ ولا تعسُّفٍ، ويمتلك قدرةً على تخفيفِ التَّوتُّر، وتصحيح الأخطاء، وتقويم العيوب بصورة طبيعية، لا تسبب حرجًا لأحد، أو جرحًا للمشاعر؛ لأن هذه المعالجة تتم في جوٍّ من التفاؤل والأمل، والتشجيع على تخطي العقبات، فتراه حينًا يُعَرِّض بالخطأ تعريضًا، ويعالجه من طَرْفٍ خفيٍّ حينًا، ويطلب الخلوات في النصائح حينًا، ويكتب الكلماتِ الرقيقةَ المعبرةَ أحيانًا، ويهدي الكتيبَ النافعَ، والشريط الهادف، ويواجه الخطأ تلميحًا، وكل ذلك ينظر فيه إلى المصلحة، مصلحة الدعوة والمدعو، ويتأمل في أفضل الطرق التي بها يُحْفَظُ ماءُ الوجهِ.

ومن الأمثلة في هذا: إذا وجدت شخصًا لا يُحْسِنُ عملًا من أمور الدعوة مثلًا، لا تقل له: لا تصلح لهذا العمل، أو أنك ستفشل فيه، وتُشعره بالعجز عن القيام به، وإنما تبحث عن العمل الذي يناسبه ويُحْسنه، وتطلب منه أن يمارسه، بقولك:

---

(١) تقدم تخريجه.

نحن نحتاجك هنا أكثر، ولا يوجد من يسدُّ مكانك.

وإذا أردتَ أن تُنَبِّهَ على خطأ في حديثٍ ما، فلتبدأ بذكر إيجابيات الحديث، ومواضع الفائدة فيه، ومواضع الاتفاق، ثم تُثَنِّي بعد ذلك بما ترى أن فيه خللًا، فذلك أَدْعَى لتقارُبِ القلوب، وإبعاد شبهة التحامل، وتسهيل الاقتناع بما ترى من رأي... وهكذا.

الفَهرس

مقدمة ٥

الحديث ٧

طرق الحديث وألفاظه ٩

رواة الحديث ١٥

أهمية الحديث ومنزلته ٣١

شرح المفردات ٣٢

الشرح الإجمالي ٣٣

الشرح التفصيلي ٣٤

فوائد فقهية ١١٢

فوائد تربوية ١٢٣

الفهرس ١٥٢

تم بحمد الله